مقاومة التفاهة

مشكلة التفاهة ، أسبابها، مآلاتها، كيفية معالجتها

أحمد بن يوسف السيد

منار الفكر

مقاومة التفاهة

مشكلة التفاهة، أسبابها، مآلاتها، كيفية معالجتها

مقاومة التفاهة

مشكلة التفاهة، أسبابها
مآلاتها، كيفية معالجتها

أحمد بن يوسف السيد

حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٥ ـ ٢٠٢٣

منار الفكر

الترقيم الدولي:

978-625-99258-3-7

KAYABAŞI MAH. ARMAĞAN SK.
NO:1N BAŞAKŞEHİR / İSTANBUL

FikirManar
+905556600088
www.fikirfeneri.net
info@fikirfeneri.net

MATBAA: STEP AJANS MATBAA LTD. ŞTİ, GÖZTEPE MAH. BOSNA CAD, NO11 BAĞCILAR , İSTANBUL
TELEFON :0212 446 88 46
MATBAA SERTIFIKA NO : 45522

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

مقدمة الكتاب	9
مقدمة حول مفهوم التفاهة	17
معنى كلمة التفاهة في اللغة وفي خطاب الشرع	17
القسم الأول: وصف المشكلة وبيان أسبابها ومآلاتها	21
المبحث الأول: وصف المشكلة وبيان مظاهرها	23
سمات ظاهرة التفاهة (في العالم الافتراضي)	23
السمة الأولى: تصدّر التافهين	23
ظاهرة الأسر التافهة	25
السمة الثانية: أنها ذات نمط يتّسم بشدة الجاذبية والمتعة والسرعة	29
السمة الثالثة: التجدد الدائم والتحديث المستمر من حيث المحتوى والأدوات	29
السمة الرابعة: أنها تحمل أمواجا من الشتات والمتناقضات في داخلها (المدخلات المتناقضة)	30
السمة الخامسة: أن طبيعة التأثير الحاصل من خلالها عميق	31
المبحث الثاني: أسباب انتشار مشكلة التفاهة وتأثيرها	33
الجهة الأولى: أسباب المشكلة من جهة المصادر المولدة للتفاهة	35
السبب الأول: الكثرة والتنوع في مصادر التفاهة مع الضخ الدائم المستمر الناتج عنها	35
السبب الثاني: الدعم المستمر للرموز المصدّرة للتفاهة من بعض المؤسسات الكبرى	35

السبب الثالث: إسهام أصحاب الشركات التجارية في ترسيخ مكانة التافهين عبر استجلابهم للترويج لمنتجاتهم	35
السبب الرابع: اهتمام كثير من مصدّري التفاهة بما يوافق ذوق الجمهور وطلبًا للمشاهدات دون اعتبار للمبادئ	36
الجهة الثانية: أسباب المشكلة من جهة قابلية الجيل الصاعد للتأثر بالتفاهة	37
لماذا صار كثيرٌ من الجيل «قابلاً» للتأثر بالتفاهة والاستجابة لها؟	37
السبب الأول: غياب المعنى والهدف	38
السبب الثاني: اختلال الهوية واضطرابها	39
السبب الثالث: ضعف التدين والتعبد	39
السبب الرابع: الفراغ والخواء الحسي والمعنوي	40
السبب الخامس: كثرة البيئات المشجعة على التفاهة وقلة البيئات التربوية الحاضنة وانحسار دور الأسرة	40
الجهة الثالثة: أسباب المشكلة من جهة ضعف الجهود المضادة للتفاهة	43
المبحث الثالث: آثار المشكلة ومآلاتها	46
تعزيز حالة الوهن والغثائية في الأمة الإسلامية	47
استثقال التكاليف الشرعية	47
التأثر بالشبهات المتعلقة بالإسلام وثوابته، ومزيد انتشار للموجة التشكيكية	48
الدلال المعرفي	49
إضعاف عقيدة الرضا بالقدر، وتعزيز السخط	50
تدني المستوى الأخلاقي	50

إضعاف الروابط الاجتماعية والأسرية	50
ذوبان المبادئ وترسيخ النفعية	51
نشوء حالة عامة من الضعف المعرفي	51
صناعة جيل قادم من الآباء التافهين	51
ازدياد مستوى الهشاشة النفسية في أفراد الجيل الصاعد	52
القسم الثاني: كيف نتعامل مع مشكلة التفاهة؟	53
أولاً: أهمية التفكير في الوقاية والحلول الاستراتيجية وعدم الاكتفاء بالمعالجات السريعة	55
ثانياً: محاور التعامل مع مشكلة التفاهة ومعالجتها	58
ثالثاً: وسائل عملية لمعالجة مشكلة التفاهة	61
الأسرة	61
بعض المقترحات العملية الموجهة للأسرة	62
المُربّون والمربيات	65
المعلّمون والمعلمات	67
بعض المقترحات للمعلمين والمعلمات للتعامل مع مشكلة التفاهة عند الطلاب	68
رابعاً: دعاة الشباب على شبكات التواصل	69
هل يصح استثمار المنابر التي عرفت بالتفاهة والانحطاط للعمل الدعوي؟	70
جوانب ينبغي النظر إليها لتُعين في الوصول إلى الحكم	72
خامسا: معالم تقوية مناعة الشباب تجاه ظاهرة التفاهة وما تتضمنه من مشكلات أخلاقية وفكرية	74
ملحق جداول ومواد علمية للجيل	79

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فمنذ أن يسر الله إخراج كتاب «إلى الجيل الصاعد» والذي تناولتُ فيه مجموعة من القضايا والرسائل التربوية والتزكوية الموجهة إلى الجيل؛ ازداد اهتمامي بتربية الجيل الصاعد على المستوى العِلْمي والعَمَلي، فأما العلمي فبتقديم المواد التعليمية من الكتب والمحاضرات وإنشاء البرامج التعليمية الإلكترونية الموجهة لهم، وأما المستوى العَمَلي فبإنشاء المحاضن التربوية على أرض الواقع.

وكان من أكبر التحديات في التعامل التربوي مع شباب الجيل الصاعد أنهم محاطون بـمُشتِّتات ومُلهيات كثيرة ومتجددة، تمنعهم من تمام التركيز، وتعيق هممهم، وتشتت عزائمهم، وتنحى بهم نحو التفاهة وانعدام المسؤولية، فضلاً عمّا يواجهونه من انفتاح أبواب الشهوات والمحرمات، والشبهات الفكرية المهددة لأساس دينهم وثوابتهم.

ومع استحضار هذا التحدي فقد يقع المربي في إشكال الانهزام أمام هذا الضغط، فيخفف من المضامين التربوية الموجهة للشباب ويعتني

بالجانب الترفيهي أكثر من غيره، من باب تأليف قلوبهم وتحبيبهم في البيئات الصالحة، وهذا توجّه قد يُحتاج إليه بحدود معينة، غير أن التجربة التي يسر الله تطبيقها مع الجيل الصاعد كانت مختلفة، فلم يكن الهدف المرجو تحقيقه معهم مجرد تخفيف الـمُشتّتات، وتقليل الـمُلهيات، أو الرضا بأقل النتائج، وإنما كان الهدف والطموح هو سدّ احتياجاتهم الروحية والعقلية والنفسية، وتخريجهم على الصورة التي ينبغي أن يكون عليها الشاب المسلم، المعتز بإيمانه وهويته، القانت لله، الداعي إليه على بصيرة، مع سوية نفسية، وتفكير منهجي، وعلم وعمل؛ ليكونوا أنموذجاً صالحاً للاقتداء، وليسلكوا مسالك المصلحين، ويتبعوا سبيل النبيّين.

وتحقيق هذا النموذج الصعب في ظل هذه التحديات المحيطة بالجيل لن يكون -بطبيعة الحال- عبر الاستسلام للقوالب التي تفرضها ثقافة شبكات التواصل، مِن لغة السرعة، والترفيه، والمعلومات الـمُعلّبة، والتحديث المستمر، وتثبيت النظرة الاستحقاقية، وإنّما بإيجاد لغة التفاهم المناسبة مع الجيل، والقرب منهم، مع الوعي بمشكلاتهم، وملامسة همومهم، وإذابة الحواجز النفسية المتوهمة بينهم وبين المطالب العالية في الدنيا والآخرة، وإتاحة الفرص لهم، وتعزيز الثقة في نفوسهم، وربطهم بشجرة الإسلام العظيمة، وتكثيف العلم الصحيح في بنائهم؛ فكانت لغة الحديث الموجهة إليهم تخاطب

أعماق الفطرة فيهم، وتُغذي ثمرة الإيمان في قلوبهم، وتنمّي ملَكة التفكير لديهم، وترفع أعلام العلوم النافعة في سماءاتهم؛ فتصنع لهم الأمل، وتضعهم على المسار الذي يشعرون فيه بأنهم ليسوا أرقاماً لا قيمة لها، ولا أصفارًا على الشمال لا يُعبأ بها، بل تجعلهم أرقاماً صعبة يمكنها تغيير المعادلات، وصناعة الآمال؛ فأحدث هذا كله-مع دوام الاستعانة بالله والتوكل عليه والاستهداء به والتبرؤ من الحول والقوة إلا به- أثراً لم يكن متوقعًا ولا محسوبًا، ولله الحمد والمنة.

وقد تأكد لي مع هذه التجربة أنّ المعالجات المؤقتة السريعة لمشكلات الجيل الصاعد ليست هي الخيار الأنسب لوقايتهم من التحديات المحيطة بهم، فهي تصطدم بأسوار هائلة من التأثيرات المضادة، التي لا يُمكن تجاوزها إلا بمعالجات عميقة وجذرية.

إن من المهم لمن يتعامل مع الجيل أن يُدرك ضخامة المؤثرات المضادة للحلول السريعة، وحجم التحديات المعيقة عن فاعلية المعالَجات الجزئية، وأنه بدون الوعي بنوع العلاج الـمُجدي، وطبيعةِ الحلّ المؤثر لن نجني إلا مزيداً من المشكلات والتحديات.

مع العلم بأن هذا الخيار لا يعني الاستغناء التام عن المعالجات السريعة، ولا التخلي عن سياسة إطفاء الحرائق، بل هي ضرورية إذا أخذت موقعها الصحيح، وفَهِمْنا أنها مجرد مُسكّنات ومهدّئات: لا يُراهَن عليها، ولا يُكتفى بها، ولا تُعطى أكبر من حجمها.

هذا؛ وإنَّ مِن أعظم المشكلات المحيطة بالجيل: (ظاهرة التفاهة)، وهي ظاهرة متنامية، واسعة الانتشار، عميقة التأثير، لها منابر لا تُعَدّ، وأشكالٌ وصور لا تُحصى، ومآلاتها المستقبلية على الأمة وأجيالها بالغة الخطر، عظيمة الضرر، كما سيأتي بيانه في هذا الكتاب بإذن الله تعالى.

وقد صدرت مؤخراً بعض الكتابات حول مشكلة التفاهة، أشهرها كتابة أستاذ الفلسفة الكندي: آلان دونو بعنوان: (نظام التفاهة)، وهو كتاب يعتني بنقد ظاهرة التفاهة في السياسة والتعليم والفن والاقتصاد وغيرها، وتركيزه على البيئة الغربية الرأسمالية، وهو كتاب مفيد في التعرف على أبعاد الظاهرة من جهات لا ينتبه لها كثير من الناس، وإن كان كتابُه ليس منحصراً في مفهوم التفاهة بالتعريف الذي أتناوله هنا إلا أن فيه قدراً مشتركاً في المعنى الكلي المتعلق بتدني المستوى، والهبوط في المؤشر العام.

ومن الكتب الصادرة حديثاً حول موضوع من موضوعات التفاهة، كتاب: (ظاهرة الألعاب الإلكترونية وهوية النشء المسلم) لهيثم زعفان، وهو كتاب مفيد في تتبع قضية الألعاب الإلكترونية التي هي وإن كانت ليست أظهر صورة من صور التفاهة، وليست كما يظن البعض إذا أُطلق لفظ التفاهة ينصرف ذهنه إلى الألعاب الإلكترونية، بل ليس كل ما فيها يمكن أن يُصنّف بأنه تافه، إلا أن هناك اتصالاً واضحاً بين التفاهة وبين عالم الألعاب الإلكترونية التي تُسهم إسهاماً

واضحاً في تعزيز ظاهرة التفاهة، بل إن كثيراً من المشاهير التافهين في شبكات التواصل إنما اشتهروا عبر نافذة هذه الألعاب وليس عندهم موضوع مع الملايين من متابعيهم إلا هي.

والمقصود أن الباحث في الكتاب قدم جهداً جيداً في تتبع ظاهرة الألعاب الإلكترونية، وما تحويه من مخاطر ومشكلات من الناحية الدينية أو النفسية، واعتنى ببيان المضامين العقدية المنحرفة لبعض هذه الألعاب، وفيه إحصاءات وتوثيق لبعض المستجدات بحيث يحسن الاطلاع عليه للمهتمين، وفي سياق حديثه عن علاج المشكلة تناول العلاج من ثلاثة محاور: محور الأسرة والحكومات والمؤسسات الدعوية، ولكنه لم يتوسع كما توسع في الرصد والتتبع لمعالم المشكلة ومخاطرها، كما ركّز على أهمية مقاومة هذه المشكلة بطريقة صناعة الألعاب الإلكترونية الهادفة وتسخير جهود الحكومات والمؤسسات الدعوية لها -وهذا فيه نظر-.

كما أن هناك بعض المشاركات المشكورة في نقد ظاهرة التفاهة عبر بعض القنوات اليوتيوبية والمواقع الإلكترونية المفيدة، ويظهر فيها التركيز على الجانب الوصفي الكاشف عن طبيعة المشكلة ومظاهرها وآثارها، ومع أهمية هذا الجانب غير أنه لا يكفي، إذ لا بد من الحديث عن كيفية التعامل مع هذه المشكلة، وطُرق علاجها والوقاية منها، وهذا ما سأتناوله في هذا الكتاب بإذن الله تعالى، مُركّزاً

على ما يتماسّ مع الجيل الصاعد من مشكلة التفاهة وتحليل جذورها وأسبابها، مبيّناً مآلات هذه المشكلة على المستوى الديني والأخلاقي والاجتماعي، منتهياً إلى الحديث عن كيفية التعامل معها، ولم أعتنِ كثيرًا بتتبع صور هذه الظاهرة ومواقعها ورموزها، بل كانت العناية متوجهة إلى جانب تحليل الأسباب وسبل العلاج.

وأود التنبيه إلى أنّ الحديث عن مشكلة التفاهة وانتشارها في الجيل وآثارها البالغة عليه، لا يعني النظرة التشاؤمية تجاه الجيل الصاعد، ولا يعني أنهم يتحملون وحدهم وزر المشكلة، بل يعني التنبّه والوعي والإدراك لعظم المشكلة وخطورتها، ومن ثم العمل والبذل والإصلاح.

وأما على مستوى التشاؤم والتفاؤل؛ فإن كفّة التفاؤل راجحة عندي، ولديّ قناعة تامة بأن مِن هذا الجيل ستخرج النماذج العظيمة الصالحة بإذن الله تعالى، والشأن كل الشأن في العمل على التربية والوقاية وصناعة المصلحين، ثم ستظهر النتائج الكبيرة بإذن الله تعالى.

وهذا الكتاب يخاطب المهتمين بتربية الجيل الصاعد من مُربّين ومعلمين وآباء ودعاة، كما يخاطب شباب الجيل الصاعد ابتداءً من سن الخامسة عشرة مروراً بالمرحلة الثانوية والجامعية فما فوقها، ذكوراً وإناثاً، وأما من دون ذلك سنّاً من أبناء الجيل الصاعد فقد تَعْسُر عليهم لغة الكتاب.

وأسأل الله سبحانه وتعالى التوفيق والسداد، والعون والبركة، والصلاة والسلام على سيدي محمد بن عبد الله، المبعوث بالحق رحمةً للعالمين.

أحمد بن يوسف السيد

إسطنبول

23 **شوال** 1444

13/ 5/ 2023

مقدمة حول مفهوم التفاهة

يدور معنى كلمة التفاهة في معاجم اللغة العربية على القلة والخسة والأمر الحقير اليسير الذي لا قيمة له[1]، وهي كذلك في استعمال الفقهاء والمحدثين حيث يذكرون في باب الحدود، أن اليد لا تُقطع في سرقة الشيء التافه[2].

وفي الخطاب الشرعي نجد أن لفظ التفاهة قد ورد صريحاً في حديث عن النبي ﷺ أخبر فيه عن تصدّر التافهين في زمن هو أشبه شيء بزماننا، فعن عوف بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن بين يدي الساعة سنين خداعة: يُصَدَّقُ فيها الكاذب، ويُكذَّبُ فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن، ويُخوَّن فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة» قيل: يا رسول الله: وما الرويبضة؟ قال: «المرء التافه يتكلم في أمر العامة»[3]. ورُوي بلفظ: (السفيه يتكلم

(1) في لسان العرب: (تَفِهَ الشيءُ يَتْفَهُ تَفَهاً وتُفوهاً وتَفاهةً: قَلَّ وخَسَّ، فهو تَفِهٌ وتافِهٌ. ورجل تافِهُ العقْل أَي قليلُه. والتافِهُ: الحقير اليسير، وقيل: الخسيس القليلُ. وفي الحديث: قيل يا رسول الله وما الرُّوَيْبِضة؟ فقال: الرجل التافهُ يَنْطِق في أَمر العامة؛ قال: التافه الحقير الخسيس.)

(2) أخرج إسحاق بن راهويه في مسنده قال: أخبرنا عبدة بن سليمان، عن هشام بن عروة، أن رجلا سرق قدحا، فأتى به عمر بن عبد العزيز، قال هشام، فقال أبي: إنه لا يقطع اليد في الشيء التافه، وقال أبي: أخبرتني عائشة أنه لم تكن اليد تقطع في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في أدنى ثمن من مجن أو حجفة أو ترس «. وفي شعب الإيمان للبيهقي (1/ 452): وَسَرِقَةُ الشَّيْءِ التَّافِهِ صَغِيرَةٌ، فَإِنْ كَانَ الْمَسْرُوقُ مِنْهُ مِسْكِينًا لَا غِنًى بِهِ عَمَّا أُخِذَ مِنْهُ فَذَلِكَ كَبِيرَةٌ.

(3) الحديث أخرجه الإمام أحمد وابن ماجه والبزار وأبو يعلى والحاكم والطبراني وغيرهم من مُسند أبي هريرة (من وجهين عنه) ، ومُسند عوف بن مالك (من وجه واحد)، ومُسند أنس بن مالك رضي الله عنهم أجمعين (من طريق ابن إسحاق عن عبد الله بن دينار عن أنس)، وقال ابن حجر رحمه الله في الفتح» (13/ 84) أخرجه أحمد وأبو يعلى والبزار وسنده جيد" والكلام في الحديث وطرقه يطول، وقد استغرب غير واحد من المتقدمين رواية أنس لأنهم لم يسمعوا في الحديث رواية لعبد الله بن دينار عن أنس إلا هذه التي تفرد بها ابن إسحاق، ذكر ذلك أبو حاتم وأبو زرعة وابن معين. والحديث بوجوهه وطرقه محل اعتبار، والله أعلم.

في أمر العامة)، وبلفظ (الفويسق أو الفاسق) كذلك.[1]

وهـذا الحديث مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالظاهرة المعاصرة التي أتناولها في هذا الكتاب من جهتين، الأولـى: من لفظ (التفاهة)، والثانية من لفظ (الرويبضة)، فإنه يزيد المعنى المقصود في هذا الكتاب وضوحاً، فقد ذكر اللغويون وشراح الحديث أن الرويبضة تصغير لـ(الرابضة) وهو الذي يقعد عن معالي الأمور، قال القاضي عياض في شرح مسلم[2]: (وقيل: إنما قيل للتافه من الناس: رابضة ورويبضة؛ لربوضه في بيته، وقلة ابتعاثه في معالي الأمور. يقال: رجل ربض عن الحاجات والأسفار: لا ينهض فيها)، وهذا كلام في غاية الأهمية فيما يخص مفهوم التفاهة، الذي جعله النبي ﷺ مفسّراً بلفظ آخر وهو (الرويبضة).

وإذا كان هذا الحديث صريح اللفظ والمعنى فيما يتعلق بموضوع الكتاب، فإنه قد روي عن النبي ﷺ أحاديث أخر، ليس فيها لفظ التفاهة صريحاً، ولكن فيها من المعنى ما يتصل بمشكلة التفاهة وموضوعها، والله أعلم.

---

(1) قال الطحاوي رحمه الله مقارناً بين هذه الألفاظ: (فلم يكن فيما رويناه من هذه الآثار من ذكر الرويبضة ما يوجب اختلافا فيه، (مَن هو من الناس على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم؟) لأنه قد يجوز أن يكون وصفه إياه بالفسق الذي يمنع مثله من الكلام في أمر العامة، ينطلق له في الدهر المذموم الكلام في أمر العامة كما يكون فيه تصديق الكاذب وتكذيب الصادق وائتمان الخائن، ويكون وصفه إياه بأنه لا يؤبه له لعلنه بفسقه ولأنه ممن لا حاجة بالناس إليه فيكون بذلك خاملا لا يؤبه له، فاتفق بحمد الله المعنيان اللذان روينا في تفسير الرويبضة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الباب ولم يختلفا. والله نسأله التوفيق) شرح مشكل الآثار.

(2) إكمال المُعلِم (6/ 26).

ومن ذلك: حديث ثوبان رضي الله تعالى عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها»، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: «بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن»، فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: «حب الدنيا، وكراهية الموت»[1].

وهو حديث عظيم من دلائل النبوة كذلك، وفيه توصيف لحالنا ومشكلة زماننا، والشاهد المتصل منه بموضوع الكتاب، قوله ﷺ: «غثاء كغثاء السيل» والغثاء هو (ما يحمله السيل من زبد ووسخ، شبههم به لقلة شجاعتهم، ودناءة قدرهم، وخفة أحلامهم، وخلاصته: ولكنكم تكونون متفرقين، ضعيفي الحال، خفيفي البال، مشتتي الآمال)[2] وهذا الكلام الشارح للحديث قريب جداً من كلام اللغويين في بيان معنى التفاهة، فيمكننا أن نستحضر مشكلة (الغثائية) ونحن نتحدث عن ظاهرة (التفاهة).

ومنها كذلك حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (لا تقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس بالدنيا لكع بن لكع)[3] قال ابن عبد البر في معنى كلمة «لكع»: (أصل هذه اللفظة الخسة

(1) أخرجه أحمد (22397) وأبو داود (4297) وهو حديث جيّد الإسناد
(2) المرقاة، ملا علي قاري (8/ 3366)
(3) أخرجه الترمذي (2209) وأحمد (23303)

والدناءة والضعف، ويقال للرجل لكع وللمرأة أيضا لكع)[1] وقال بعض شراح الحديث: (قوله: «أسعد الناس بالدنيا»؛ أي: أكثر الناس في أموال الدنيا، وأطيبهم عيشا، وأكثرهم حكما «لكع بن لكع»؛ أي: لئيم ابن لئيم)[2].

إنَّ التفاهة التي أتحدث عنها في هذا الكتاب لا تخرج في معناها عن دلالتها اللغوية والشرعية المبينة في هذه المقدمة، وهي مشكلة متنامية الانتشار في عامة المجتمعات البشرية، وخاصة في الأجيال الصاعدة منها، تنتشر في الفضاء الإلكتروني والواقعي، وتخترق مختلف مجالات الحياة: الثقافية والتعليمية والاجتماعية والسياسية وغيرها، وتتمثل في صورة متعددة، سيأتي ذكر شيء منها في القسم القادم في وصف معالم الظاهرة.

(1) التمهيد (21/ 24)
(2) المفاتيح شرح المصابيح

القسم الأول:

وصف المشكلة وبيان أسبابها ومآلاتها

وصف المشكلة وبيان مظاهرها

سبقت الإشارة إلى أن هذا الكتاب لا يُعنى بالتتبع التفصيلي للبرامج التافهة والمواقع والشخصيات والمنصات التي تحويها، فالتركيز فيه لا ينصب على الجانب الرصدي الاستقصائي، وإنما على الجانب التحليلي لجذور المشكلة وأسبابها، وبيان خطورة مآلاتها، ومستوى تأثيرها، وكيفية التعامل معها، وطرق معالجتها والوقاية منها.

ولكن لا بد من التعريج على بعض معالم هذه الظاهرة، مما يُعِين على فهم شيء من طبيعتها وسماتها، ليكون مقدمة لإحسان التعامل معها.

سمات ظاهرة التفاهة:

إن من أبرز سمات ظاهرة التفاهة أنها قائمة على تصدّر التافهين الذين يقودون التأثير على الجماهير المتابعة، وخاصة من الجيل الصاعد، وهؤلاء الرموز والمشاهير هم من يغذي التفاهة ويروج لها ويزينها[1]، فيمكننا أن نسمي ظاهرة التفاهة بظاهرة الرموز التافهة، أو ظاهرة تصدّر الرويبضات.

(1) أجريت استفتاء عبر حسابي في تويتر، شارك فيه قرابة عشرة آلاف شخص، كتبتُ فيه: (برأيك ما هو أكبر مصدر من هذه المصادر يحتوي على التفاهة ويصنعها ويؤثر على الجيل الصاعد؟)، وكانت الخيارات أربعة، وهي:
1 – المشاهير «يوتيوبرز» وغيرهم. وحاز هذا الخيار على 74,07 ٪ من الأصوات.
2 – الأفلام والمسلسلات. وحاز هذا الخيار على 18,01 ٪ من الأصوات.
3 – الألعاب الإلكترونية. وحاز هذا الخيار على 4 ٪ من الأصوات.
4 – الأنمي. ولم يصوّت لهذا الخيار إلا 3,02 ٪ من الأصوات.
وبطبيعة الحال؛ ليس هذا الإحصاء كافياً في تثبيت خطورة هذا المصدر، ولا هو بالضرورة دقيقاً في نتيجته، غير أنه يكشف عن جانب من جوانب تأكيد المشكلة، ويمكن إثبات ذلك بوسائل أدقّ وبصور استقصائية ليست مقصودة في هذا الكتاب.

ويمكننا تعريف هؤلاء المشاهير بأنهم الأشخاص الذين يمتلكون حسابات ذات جماهير واسعة من المتابعين، يصلون من خلالها إلى مئات الآلاف أو الملايين من الناس، يعرضون من خلالها حياتهم اليومية، ومقتنياتهم المادية، ويوثقون فيها علاقاتهم ومناسباتهم الاجتماعية، ويتفاعلون فيها مع طلبات الجمهور وأسئلتهم، ويعلقون فيها على الأحداث ذات الاهتمام المشترك مع المتابعين، ويعدّون هذه المنابر وسيلة ربحية لزيادة أرصدتهم المالية عبر الإعلانات والدعايات المتنوعة، ويشاركون أحياناً في بعض الحملات السياسية التي تتبناها بعض الدول لتوجيه الرأي العام وتعزيز قناعاته تجاه بعض القرارات، كما قد يشارك بعضهم أحياناً في دعم جوانب من الخير المتعلق بالعمل التطوعي أو سد احتياجات بعض المحتاجين.

والمتأمل لأحوال هؤلاء التافهين يجد أنهم لا يمتلكون أدنى موجِبات التصدر على مختلف المستويات العلمية والثقافية والاجتماعية -سوى مُوجِب امتلاك الجمهور الذي لم يتكوّن حولهم إلا لما يعرضونه من التفاهات والترفيه المتدني-.

وقد تتبعتُ بعض ما يقدمه هؤلاء المشاهير، فذُهلت لما حققته مقاطعهم من أرقام مشاهدات هائلة لا تتناسب مع المحتوى المقدم فيها، بالإضافة إلى تضمنها لسلبيات وإشكاليات تتفاوت في درجة خطورتها، فقد تصل إلى الترويج للشبهات المشككة في الدين

وثوابته، أو نشر الأفلام والمسلسلات الهابطة والتفاعل معها وتقييمها –وهي قضية منتشرة– أو محاربة المصلحين والدعاة لدوافع سياسية، أو الانغماس في الملهيات والحياة المادية وترسيخ الغفلة، مع التنبيه إلى أن مِن هؤلاء المشاهير من لديه حرص على بعض جوانب الخير، أو ابتعاد عن الفحش والشبهات، مع الاشتراك العام في معنى الترويج للتفاهة.

وتتفاوت أعمار هـؤلاء المشاهير تفاوتا بيّناً، فمنهم شباب أعمارهم ما بين (15–25) وهم الأكثر، ومنهم من هو أكبر سنًّا من ذلك، ومنهم أطفال صغار –بعضهم دون العاشرة– يعمل أهلهم على تصديرهم وترميزهم فيعرضون حياتهم اليومية وطبيعة تفاعلهم مع المستجدات والجمهور، وهي ظاهرة متنامية يمكن أن نسميها ظاهرة الأسر التافهة، حيث تقوم هذه الأسر بعرض مختلف جوانب حياتهم، وخاصة الجوانب الترفيهية والاستهلاكية –والتي تستغرق في العادة أغلب مدة المقاطع–، وتارة يشترك في الظهور في تلك المقاطع كل أفراد الأسرة، وتارة يكون التركيز على الصغار منهم، وأحيانا يكون هؤلاء الصغار في مرحلة الحضانة، فيكون العرض متعلقاً بأكل الطفل ونومه ولعبه ومشاعره، وينشرون في ذلك عشرات الساعات والمقاطع التي يتابعها الملايين أو مئات الآلاف، ولا تكاد تتضمن شيئا مفيداً أو نافعاً، سوى: أَكَلَ الطفل، نام الطفل، ضحك الطفل،

بكى الطفل، ظهرت أسنان الطفل، زارَ الطفل صديقه، لعب الطفل بألعابه، إلى آخر ذلك.

ومن الملاحظ أنّ هذا النوع من المقاطع يُسهم في تكوين ثقافة عامة ذات معايير خاطئة لدى شريحة واسعة من الأجيال الناشئة، ومن الغريب كذلك شدة الإقبال وضخامة المشاهدات لهذه المقاطع، **فعلى سبيل المثال**: أقامت عائلةٌ من العوائل العربية احتفالاً مشهوداً بمناسبة تحديد جنس الجنين الذي في بطن الأم، وكان ذلك الاحتفالُ حدثاً كبيراً لاقى اهتماماً واسعاً من ملايين المتابعين، وبلغت مشاهدات المقطع إلى اليوم (44 مليون مشاهدة) مع آلاف الرسائل الـمُهنّئة والـمُبارِكة، والقضية التي اجتمع هؤلاء عليها وأقاموا الدنيا وأقعدوها ليست إلا معرفة ما في بطن الأم أذكرٌ هو أم أنثى!

ومن الأمثلة كذلك ما تنشره طفلة عربية مشهورة على قناتها في موقع (يوتيوب) من يومياتها واهتماماتها وحفلاتها ومقتنياتها وما إلى ذلك، وهي وإن كانت واحدة من عشرات الأطفال الذين وصلوا إلى مستوى أن يكونوا رموزاً وقدوات لكثير من الأطفال، إلا أن اللافت في أنموذج هذه الطفلة هو ضخامة عدد جمهورها، حيث بلغت مشاهدات مقطع واحد في قناتها أكثر من (300) مليون مشاهدة، وأما المتابعون الثابتون -المشتركون- فهم بعشرات الملايين، وتتزايد الأرقام يوميا بقدر مدهش.

ومع أنَّ الأطفال يُتجاوز في حقّهم ما لا يُتجاوز في حق الكبار، ومع أننا نرجو لهذه الطفلة التوفيق ونتمنى لها النجاح في حياتها، إلا أنَّ الإشكال في مثل هذه الحالات: ما يُصنع فيها من معايير للأجيال الناشئة تدور حول معنى المتعة والترفيه الترفيّ الباذخ والالتفاف حول التفاهات، والتركيز على معنى الدهشة والانفعال الشعوري تجاه أحداث صغيرة لا تستدعي أي انفعال أو اهتمام، مع تزيين لفكرة الاستكثار من المقتنيات، والحياة القائمة على الاستهلاك، وترسيخ الولع بالفعاليات والمناسبات والاحتفالات لأتفه الأسباب، ورسم أطر للحياة اليومية تصنع نماذج معيارية لدى الجيل، حتى يصبح هذا المشهور أنموذجاً عاليا يتمنى كثير من أبناء الجيل الوصول إلى منزلته للتمتع والرفاهية وحصد الأرقام العالية، فضلاً عما تجلبه هذه القنوات من أموال طائلة لأصحابها دون جهد يُذكر، مما يدعو إلى تكثيف التوجه إلى هذا النوع من المِهن التافهة القائمة على استرضاء الجمهور وسؤالهم أن يضعوا أكبر عدد من علامات الإعجاب على المقطع.

ولا شك أن مسؤولية أولياء أمور هؤلاء الأطفال كبيرة، فعليهم أن يُدركوا أنّهم في أمانة حقيقية على أبنائهم أولاً، وذلك أنّ هذا التصدر له ضريبته وتبعاته على الأبناء خاصة على المستوى السلوكي والنفسي، ثم على أولياء الأمور أن يدركوا الأمانة كذلك من الجهة

العامة المتعلقة بالمتابعين والجمهور، وأن أقل ما يمكن عمله هو ألا يكون المرء حلقة في سلسلة ترسيخ التفاهة في المجتمعات الإسلامية، وأعلى من ذلك هو أن يكون صاحب رسالة هادفة وأثر طيب ينفعه بعد موته، وأن يدرك أن هذه المنابر من الابتلاء العظيم الذي سيُسأل عنه الإنسان: كيف عمل فيه، وهل اتقى الله فيه أم لا.

على أية حال، هذه نماذج متفرقة، أما إذا تتبعنا وأعملنا أدوات الرصد والاستقراء الشمولي؛ فسنجد أن القنوات اليوتيوبية المتعلقة بالتفاهات أكثر من أن تُحصى، وأن أعداد المتابعين تصل إلى مستوى في غاية العجب، وأن صور التفاهات فيها كثيرة جداً، مما يدلّ بمجموعه على أننا أمام ظاهرة عامة متنامية شديدة التأثير، وأن آثارها وإن كان قد ظهر كثير منها على شرائح واسعة، إلا أننا ربما سنواجه في المستقبل آثاراً أكثر وضوحاً ورسوخاً في الأجيال الناشئة، وأن هؤلاء المشاهير هم من أكثر الناس تأثيراً في المجتمع حقاً مع افتقادهم لأدنى مقوّمات القدوة أو التوجيه.

والإشكال الأكبر أنه قد لوحظ على بعض مشاهير الشباب، أنهم يبدؤون بمقاطع تافهة -عفوية- لا تصادم الأخلاق والقيم الإسلامية مصادمة فجّة، ثم لا يلبثون -مع التفاف الناس حولهم ودخولهم في فتنة الشهرة- أن ينزعوا لباس الحياء شيئا فشيئاً، حتى يصل الحال إلى مستوى سيء من جهة العلاقة بين الجنسين، وقد يصل إلى أن يظهر

بشكل صريح مع الفتيات غير المحجبات، وقد يُنتج معهن بعد ذلك فيديوهات فيها رقص وحفلات وما إلى ذلك -نسأل الله العافية-، وهذا واقع موجود فعلاً عند بعض هؤلاء، وله أمثلة مشهورة، والله المستعان.

ومن سمات ظاهرة التفاهة: أنها ذات نمط يتسم بشدة الجاذبية والمتعة والسرعة، فلا يحتاج الشاب إلى كلفة حتى ينجذب إلى المخرجات التافهة بل على العكس من ذلك؛ يحتاج إلى مجاهدة ليدافع رغباته في الانسياق إليها، بينما نجد في المقابل انخفاضًا في مستوى انجذابه إلى المحتوى المفيد النافع الذي ليس فيه صفة الجاذبية والمتعة المتوفرة في المحتوى التافه، وقد ينساق بعض أصحاب المحتوى العلمي النافع مع هذا النمط التافه فينزلون بمستوى موادهم النافعة ليخرجوها بالقالب القريب من القوالب التافهة.

ومن سماتها: التجدد الدائم والتحديث المستمر من حيث المحتوى والأدوات، فالمتابع لهذا النمط من المحتوى يرى حالة من عدم الثبات على مستوى واحد من التفاهة، بل يرى التجديد المستمر للأنماط والمحتوى والأساليب، بحيث يظل المتأثر بها دائم الانجذاب، بعيدًا عن الملل، متقلبًا من فضاء تافه إلى آخر أتفه منه، وهذا يزيد زمن الارتباط بالمحتوى التافه، إذ قد يمتد لسنوات طويلة دون ملل؛ لأنّ التحديث مستمر، وهذا يؤدي إلى ضياع عظيم للأوقات، وإهدار للأزمان، وهي مصيبة هادمة للأمم، مُراكِمة للأمراض.

ومما يتصل بهذه السّمة من ملاحظات: أنّ هذا التحديث الدائم قد أدى إلى تسارع في تغيير سمات الأجيال في زمن أقصر من الأزمنة التي تتغير فيها الأجيال عادةً -وهذا أمر في غاية الخطورة لمن يتأمله ويدركه-، حتى بات من الصعب على المراقب أن يواكب هذا التغيّر وآثاره، وحتى صار يُلاحَظ على الأبناء في البيت الواحد -ممن لا فرق بينهم في العمر إلا بضع سنوات- التغير والاختلاف في السمات والاهتمامات وفي الحدود والمعايير، وهذا كله يستدعي الاهتمام والتحديث الدائم في المتابعة وفي الأدوات الإصلاحية.

ومن سمات هذه الظاهرة -وهي سمة عامة في شبكات التواصل-: أنها تحمل أمواجًا من الشتات والمتناقضات في داخلها، مما هو كفيل بتمزيق صفاء النفس واجتماع القلب، فأنت في عالم شبكات التواصل أمام كم هائل من الـمُدخَلات المتناقضة، فإذا كنتَ تتابع في حسابك (300) حساب مثلاً، ستجد أنه يظهر في صفحتك بشكل متتالٍ أخبار فيها دماء ومصائب وكوارث تقطع القلب، وفي أثنائها تجد لقطة عن هدف في لعبة كرة القدم للاعب مشهور، ثم تقرأ تعليقات الناس عليه وتفاعلهم معه وخلافات مشجعي الأندية الأخرى، ثم تعود إلى خبر آخر عن أزمة سياسية كبيرة، لتنتقل بعدها مباشرة إلى إعلان تجاري مزين باستعراض امرأة متبرجة تروّج لتطبيق أو سلعة معينة، ثم تعود إلى مشهد قصفٍ يهدم بيوت الضعفاء، وتظهر من بين ركامه الأشلاء،

لترى بعدها جديد المشهور (التافه) الذي تتابعه إن كان اقتنى سلعة جديدة أو قام بحفلة أو نحو ذلك. كل هذا يحدث يومياً، ويمرّ عليه المتابع خلال أقل من ساعة واحدة، والنتيجة من ذلك إما حالة من الشتات النفسي الكبير، وإما حالة من جمود المشاعر وبرود العواطف واستواء المتناقضات، وهذا كله يضاف إلى آثار المشكلة ومآلاتها الخطرة.

ومما يلاحظ في ظاهرة التفاهة أنَّ طبيعة التأثير الحاصل من خلالها عميق يتناول الجذور ولا يكتفي بالسطح، فعالَم التفاهة يصنع القدوات ويؤسس المعايير التي من خلالها يحكم الإنسان على الأشياء، مثل: معيار التقدم، والتسامح، والتشدد، والتدين، والسعادة، والحزن، وبناء العلاقات، هذه المعايير وغيرها يتلقاها الشاب من خلال رموز شبكات التواصل وهذا أعمق ما يكون من التأثير، إذ إنّ من يصنع المعايير يظفر بالتأثير.

كما أنّ المتابع لمنابر التفاهة في شبكات التواصل، ولطبيعة تفاعل الجيل الصاعد معها، ومقدار عكوفهم عليها كمّاً وكيفاً، يُدرك أن هذه المنابر باتت تُشكّل لروادها عالماً خاصاً يُستغنى به عن الواقع، أو يُتخفف به عن كثير من متعلقات الواقع، ويشمل هذا الاستغناء: جانب العلاقات بكل تفاصيله، وجانب المتعة والترفيه بدرجات مكثفة لا تتوفر في العالم الواقعي، كما يشمل الجانب المعرفي، والجانب

النفسي، بل وحتى الجانب المالي الذي دخل العالم الافتراضي من أوسع أبوابه بعملاته الرقمية وغير ذلك، فعالم التفاهة فيه هيمنة مسيطرة على الذهن والوقت والعلاقات والشعور، بل يمكن أن تصل بالبعض إلى حالات متقدمة يصفها بعض المتخصصين بالإدمان، وهي صورة أخرى من صور مزاحمة التفاهة لمعالي الأمور.

وأغلب هذه المعالم المذكورة هنا متعلقة بعالم التفاهة الإلكتروني، ومتصلة بالجيل الصاعد، وهذا هو محل الاهتمام الأكبر في هذا الكتاب، وإلا فإن ظاهرة التفاهة أعم من ذلك، ومن يقرأ كتاب (نظام التفاهة) لـ(آلان دونو) يُدرك أن طبيعة الأنظمة العامة في الحياة المعاصرة تقود إلى عالمٍ من التفاهة وتدني المستوى، فهو يتحدث عن نظام التعليم -مثلا- وأثره في صناعة التافهين، ويذكر أن النظام التعليمي صار مجرد خادم لاحتياجات سوق العمل، وأنه انتقل من صناعة المعرفة إلى صناعة الخبرة التي يقصد بها التخصص في مجالات معرفية فرعية متناهية الصغر دون إدراك للنظرة الكلية، أو الخلفيات الفكرية، أو اهتمام بالتفكير النقدي، وإنما مجرد هوس بالتطور الوظيفي، ويرى أن العقول استُعمرَت من قبل الإعلان التجاري وصناعة الترفيه، إلى غير ذلك من الحديث في كتابه المهم في هذا الباب.

أسباب انتشار مشكلة التفاهة وتأثيرها

عند تناول أسباب ظاهرةٍ ما، فإن من المشكلات الملاحَظ تكرار الوقوع فيها: مشكلة (تعميم الحالات الفردية)، فيعمِدُ من يتناول الحديث عن أسباب مشكلة التفاهة عند الجيل الصاعد -مثلاً- إلى قياس حالة ابنه أو أخيه أو أحد أقربائه فيعممها على سائر أفراد الجيل الصاعد ممن وقعوا في مشكلة التفاهة، فإذا كان من يعرفه اشتهر بالدلال -مثلا- فتجده يُرجع مشكلة التفاهة لدى الجيل إلى مشكلة (الدلال والترف)، بينما لا يلزم بالضرورة من وجود هذا المعنى فيمن يعرفه بأن يكون موجوداً في بقية المتأثرين بظاهرة التفاهة.

كما أن من الأخطاء المتكررة في تحليل أسباب مشكلة ما: عدم ملاحظة معنى التركيب في الأسباب، أي أن تكون المشكلة ناشئة عن أسباب متعددة متنوعة لا عن سبب واحد، وأكبر إشكال ينبني على هذا الاختزال للأسباب هو ما يؤديه من قصور في الحلول التي يمكن تقديمها للمشكلة؛ وذلك لأن رسْم الحلِّ فرعٌ عن تصور أبعاد المشكلة وأسباب تكوّنها وبواعث انتشارها.

وإذا نظرنا إلى أسباب انتشار مشكلة التفاهة وتأثيرها فسنجد أن لدينا ثلاث جهات، في كل جهة منها عدة أسباب، وذلك على النحو التالي:

1 – الجهة الأولى: المصادر الـمُولّدة للتفاهة.
2 – الجهة الثانية: قابلية الجيل الصاعد للتأثر بالتفاهة.
3 – الجهة الثالثة: ضعف الجهود المضادة للتفاهة.

وطريقة الجهات الثلاث هذه يمكن تطبيقها على عامة المشكلات التي فيها مصادر مولّدة ومصادر مستقبلة ومصادر معالِجة، كالإلحاد، والنسوية، والشذوذ وغيرها.

أولاً: أسباب المشكلة من جهة المصادر المُولّدة للتفاهة:

السبب الأول: الكثرة والتنوع في مصادر التفاهة مع الضخ الدائم المستمر الناتج عنها، فالظاهرة ليست مرتبطة بأشخاص محدودين، ولا بمنصّة إلكترونية دون أخرى، ولا بموسم زمني دون غيره، بل نحن أمام مساحة واسعة من المصادر التي تنشر التفاهة وتروج لها، ما بين رموز وشخصيات، إلى تطبيقات ومنصّات وشركات ومؤسسات، بأعلى صور الجذب وأقوى وسائل الدعاية والنشر والترويج، مع الاستمرار الدائم والتحديث المستمر والتجديد المتواصل.

السبب الثاني: الدعم المستمر للرموز المصدّرة للتفاهة من بعض المؤسسات الكبرى، إعلامية واجتماعية وسياسية وغيرها، مثل بعض القنوات التليفزيونية الكبرى التي تقتنص المقاطع الرائجة والمشاهير المؤثرين؛ فتستضيفهم في برامج وتسلط الضوء عليهم أكثر، أو تستقطبهم أحيانا للعمل الدائم في القناة، أو مثل بعض الفعاليات الترفيهية التي تتبناها بعض المؤسسات الحكومية، فتقوم باستقطاب التافهين وتصديرهم في مثل هذه الاحتفالات، بالإضافة إلى أن بعض الدول تستثمر شهرة بعض المشهورين في شبكات التواصل للتوجيه السياسي وفرض بعض ما تتبناه الحكومة من آراء أو توجهات.

السبب الثالث: إسهام أصحاب الشركات التجارية والأعمال في ترسيخ مكانة هؤلاء التافهين عبر استجلابهم للترويج لمنتجاتهم،

وخاصّة في أيام المواسم والافتتاح للمحلات والأسواق، مصحوبة بزخم كبير، وحضور الجموع من الناس لهذا الحدث الذي يكون نجومه أولئك المشاهير الذين لا يقدم كثير منهم شيئًا أكثر من التفاهة.

السبب الرابع: أن رواج هذه المواد التافهة مرتهن على إثارة إعجاب الجمهور، ولفت انتباههم، وعدم مخالفة أهوائهم، دون اعتبار للمبادئ أو الوقوف مع الحق وإنكار الباطل، وهذا أمر سهل في زمن شبكات التواصل، فلذلك نجد أن أساس تفكير عامة المشاهير هو كيف أحقق أكبر قدر من المشاهدات، وأستجلب أكبر عدد من علامات الإعجاب، بغضّ النظر عن صحة ما يُقدّم أو مناسبته لأخلاق الجيل أو موافقته للشرع وما إلى ذلك، حتى صار بعضهم عبداً لهذا الجمهور، وهذا بلا شك من أسباب الرواج والتأثير، بينما تجد كثيراً من أصحاب الرسالة السامية يجتنبون بعض الوسائل والأساليب من باب تعارضها مع المبادئ، فيمنعهم هذا من الوصول إلى بعض الشرائح.

ومما لا ريب فيه أن تقديم المبادئ على رغبة الجمهور حال التعارض هو الحق، وهو ما فعله الأنبياء الذين جاؤوا بما يتعارض مع رغبات الجمهور في أزمانهم.

هذه أربعة أسباب لانتشار مشكلة التفاهة من جهة واحدة فقط، وهي جهة المصادر الـمُولّدة للتفاهة، وبقيت جهتان مؤثرتان في انتشار المشكلة.

ثانياً: أسباب انتشار مشكلة التفاهة من جهة قابلية الجيل للتأثر بها:

إذا تحدثنا عن كثرة الوسائل المصدّرة للتفاهة والصانعة لها، فإنه مهما تكن تلك المصادر قوية فإنها لا تعمل عملها، ولا تجد فاعليتها الحقيقية مالم يكن هناك محل قابل للتأثر بها ليس لديه من المناعة ما يصد به موجة هذه المصادر؛ فإنه على كثرة المؤثرات الخارجية وتعرض كثير من أبناء الجيل لها، إلا أننا نجد تأثرًا كبيرًا بها من بعضهم وقلة تأثر بها من بعض، رغم أنهم يعيشون في نفس المجتمع ونفس الجيل وتمر عليهم نفس هذه المؤثرات. **ولذلك فإن من أهم سبل مقاومة التفاهة تقوية مناعة الجيل ليكون محلاً غير قابل للتأثر بالتفاهة**؛ فالنظر للأسباب من جهة المحل يضيف لنا حزمة تفسيرية أخرى غير حزمة المصادر الصانعة للتفاهة التي سبق الحديث عنها، ألا وهي حزمة قابلية المحل، وهي حزمة مهمة جداً في باب المعالجة، حيث يمكن وضع خارطة جزئية للحل مضادة لهذه الأسباب، مع العلم بأن الخارطة الشمولية للحل أوسع من ذلك بكثير، وسيأتي التفصيل فيها لاحقًا بإذن الله تعالى عند الحديث عن الحلول لمشكلة التفاهة، حيث ستتوزع الحلول ما بين وقاية وعلاج وصناعة بدائل.

والسؤال المهم هو: لماذا صار كثيرٌ من الجيل «قابلاً» للتأثر بالتفاهة والاستجابة لها؟

والجواب أن هناك عدة أسباب، منها:

السبب الأول: غياب المعنى والهدف:

من المعلوم أنَّ الإنسان كلما كان له هدف يعيش لتحقيقه فإن تركيزه على هذا الهدف يجعله منشغلاً عن الصوارف والعوائق التي تحول بينه وبين تحقيقه، وهذا أمر واضح من جهة المعنى ومُشاهد في الواقع، وبعكس ذلك فإنه كلما انعدمت الأهداف اختلّت بوصلة السير، فيتشتت الإنسان، وينشغل بكل شيء يلهيه أثناء الطريق، حتى تنتهي حياته دون أن يصل إلى غاية تستحق السير أصلاً، ولذلك نجد التركيز في القرآن والسنة دائماً على هدف النجاة في الآخرة وتحقيق رضوان الله تعالى، وأن الإنسان كلما كان للدار الآخرة أكثر استحضاراً وتذكُّراً هانت عليه فتن الدنيا ومغرياتها.

وإذا نظرنا إلى حالة كثير من أبناء الجيل الصاعد في هذا الزمن نجد أنّ غياب الأهداف العالية سمة بارزة فيهم، فترى كثيراً منهم لا يقرر الالتفات إلى نفسه وأهدافه التي تستحق العيش إلا بعد انصرام مرحلة ثمينة من العمر، ولذلك فإنَّ من أعظم سبل الوقاية من مشكلة التفاهة: صناعة الأهداف العالية للجيل، وإحياء الهمم والعزائم لهم، وقد رأيتُ أثر ذلك وجرَّبْتُه مع طلاّبي من الجيل الصاعد كيف تزول التفاهة من حياتهم بمجرد إيجاد الأهداف العظيمة والبرامج النافعة المحققة لهذه الأهداف.

السبب الثاني: اختلال الهوية واضطرابها:

من أهم الأسباب التي تُكوّن الوقاية من التأثر بالأفكار المضادة للإسلام: قوة الهوية الإسلامية ووضوحها. ولكي تكون الهوية الإسلامية قوية فلا بد أن تكون مرجعية الوحي (الكتاب والسنة) واضحة فاعلة في حياة المسلم، ولا بد من وضوح مركزية الآخرة، وكذلك الشعور بالانتماء للأمة الإسلامية وتاريخها وتراثها، والاعتزاز بلغة القرآن وعظمتها، فكل هذه الأمور تجعل من حاملها صاحب هوية إسلامية قوية متينة، ومن يكون كذلك فإنك تجد لديه مناعة ذاتية من كثير من الأمراض الفكرية والثقافية، وتجد همته عالية، وأهدافه كبيرة، وتجده متساميًا عن التفاهة والدون، ولذلك فإنَّ من أعظم سبل الوقاية من مشكلة التفاهة: تعزيز الهوية لدى الجيل الصاعد.[1]

السبب الثالث: ضعف التدين والتعبد:

من المشكلات الكبرى في العالم الإسلامي اليوم: ضعف التدين لدى شرائح واسعة من المسلمين، وذلك لأسباب كثيرة، منها: هيمنة الإعلام الفاسد، وتبني كثير من الدول لسياسة نشر الفساد وإلهاء الشعوب، وكذلك ضعف الدعاة والمصلحين والتضييق عليهم ومحاربتهم، بالإضافة إلى وجود الأفكار العلمانية المتصلة بالثقافة الغربية والآتية عن طريق الاستعمار والاستشراق وأدواتهما، وهذا

(1) راجع سلسلة (تعزيز الهوية للجيل الصاعد).

كله جعل حالة الشعوب الإسلامية في إشكال عميق من جهة التدين، بل لولا رحمة رب العالمين لكان الحال أشد من ذلك بكثير، فالحمد لله على رحمته وبركته الذي أبقى الإسلام وأقبل بقلوب أهله عليه على الرغم من كل هذه التحديات التي لو اجتمعت على دين آخر لاجتثته من أصوله.

والمقصود أن الضعف العام للتدين له أثر في انتشار مثل هذه الموجات من التفاهة والثقافة الغالبة والأفكار المخالفة.

ولذلك فإنَّ من أعظم سبل الوقاية من مشكلة التفاهة: العناية برفع المستوى الإيماني في الشباب، وتربيتهم وتزكيتهم.

السبب الرابع: الفراغ والخواء الحسي والمعنوي:

موجة التفاهة لا تنتشر إلا في مساحة من الفراغ، وهذا أمر مشاهد في الواقع، وقلّ أن تجد من هو ممتلئ الذهن والقلب -ممن سخر وقته في معالي الأمور- نازلاً إلى مستنقعات التفاهة غارقاً فيها، وإن كان قد وُجد في الواقع من تأثر بمثل ذلك لبريق التفاهة وإغراءاتها، فيكون سبب سقوطه ليس عدم امتلاء وقته وإنما ضعف إرادته بحيث لم يُرجح ما يستحق الترجيح عند التزاحم.

السبب الخامس: كثرة البيئات المشجعة على التفاهة وقلة البيئات التربوية الحاضنة:

من أشد البيئات المحيطة بالجيل تأثيراً: بيئة المدرسة في العالم

الواقعي، وبيئة شبكات التواصل في العالم الافتراضي، حيث يتشكل وعي أكثر الطلاب واهتماماتهم عبر هاتين البيئتين.

وإذا أردنا أن نكون واقعيين فإن هاتين البيئتين -على الرغم من كل ما فيهما من الخير- إلا أنهما من أكثر البيئات التي ينتشر فيها الفساد، ويتعلم فيها الطلاب -فيما بينهم- ما يناقض أصول الأخلاق، ويتلقّف صالحهم عن طالحهم كثيراً من الانحرافات والإشكالات التي من أقلها: مشكلة التفاهة، ويجد الطلاب الصالحون المتمسكون باستقامتهم وعبادتهم وأخلاقهم صعوبة في المحافظة داخل بيئات كثير من المدارس؛ بسبب ما ينالهم من بعض الطلاب من التعليقات الساخرة والكلام الـمُحبِط.

وهذه مشكلة مع كونها منتشرة ويعاني منها الكثير، إلا أنّ الأغلب يُعرض عنها صفحًا، ولا يلقي لها بالاً، وذلك لكونها متعلقة بالدراسة النظامية التي هي خارج محل النقد والمراجعة والتمحيص، وهذا من أكبر أسباب تراكم مشكلاتنا الأخلاقية والدينية بكل أسف؛ لأن عدم تشخيص الداء يؤدي إلى تأخير الدواء.

ومما يزيد من هذا الواقع إشكالاً: قلة البيئات التربوية الجامعة للشباب، المعززة لهويتهم الإسلامية، والمنميّة لوقايتهم من مختلف الأدواء الثقافية والسلوكية والفكرية، فترى الشاب يتقلب في البيئات المؤثرة عليه سلباً، ولا يكاد يجد بيئة تربوية مناسبة له، خاصةً مع

الانحسار الملحوظ لدور الأسرة وفاعليتها في السنوات الأخيرة، وهذا كله يُحتّم على المصلحين تكثيف بناء المحاضن التربوية، والسّعي لتفعيل دور المستفيدين منها في المدارس والبيئات الشبابية؛ للإسهام في تخفيف مقدار السلبية في تلك البيئات، ورفع مستوى الصلاح والخير فيها.

ثالثاً: أسباب انتشار مشكلة التفاهة من جهة ضعف الجهود المُقاومة للتفاهة:

مع أنّ المصادر المُولّدة للتفاهة كثيرة ومؤثرة، ومع أنّ قابلية الجيل للتأثر بها كبيرة كذلك، إلا أن من أهم العوامل في تخفيف أثر هذه المصادر، وفي رفع مناعة الجيل تجاهها: هو ما تقدمه الأسرة من تربية لأبنائها، وما يقدمه المصلحون المربون، والدعاة الناصحون من بناء وتوجيه ومزاحمة للمصادر الفاسدة، فإذا قام هؤلاء بدورهم، وأحسنوا العمل والتربية والدعوة، وأدركوا سمات الجيل، وكيفية مخاطبتهم، وفهموا معالم التربية النبوية، وحرصوا على تحقيقها وتطبيقها؛ فإن أثر المصادر السلبية سيكون محدوداً وضعيفاً مهما كان حجمه وطبيعته، وهذا ينطبق على التحديات الفكرية عامة، كالإلحاد والنسوية والتشكيك في الثوابت؛ إذْ إن الشأن ليس في وجود مصادر الشر بل في قابلية المتلقين للتأثر، فإذا وُجد من يرفع المناعة، ويصنع البدائل الصحيحة، ويملأ النفوس بالحق؛ فإن الباطل سيذهب جفاءً ولن يجد له مستقراً في القلوب.

والمتأمل في الجهود التربوية الموجَّهة للجيل الصاعد -بهدف رفع مناعتهم تجاه التحديات التي تواجههم- سيجد نقصاً كبيراً في هذه المساحة، وأن الحاجة لا تزال ماسة للجهود التربوية والدعوية الموجهة للجيل، بل لا مقارنة بين مقدار ضخ الفساد والتفاهة وبين

الجهود المضادة لها، خاصةً بعد محاربة المشاريع الإسلامية في السنوات الأخيرة، وبعد إبعاد كثير من المصلحين وعزلهم عن التأثير في المجتمع.

ومما يزيد الأمر إشكالاً أنّ **دور الأسرة التربوي آخذ في التناقص**، حيث تزداد سمة الانشغال العام بشبكات التواصل ومواقع الإنترنت لدى الكبار والصغار، إلى درجة قل معها الصبر على التربية، وبدأت ثقافة (استمتعي بحياتك) تنتشر بين شرائح من أمهات الجيل الجديد، والمقصود بها: عدم الانشغال بأعباء الأسرة والتربية على حساب الاهتمام بترفيه النفس وإسعادها بمعيار المتعة والاستهلاك واللذة.

هذا بالإضافة إلى ازدياد **شعور كثير من أبناء الجيل بأن الأجيال السابقة لا تفهمهم**، ولا تدرك حاجاتهم، ولا التحديات المحيطة بهم، وهذا يزيدهم إيغالاً في فضاءاتهم الإلكترونية الخاصة، وهذا التباعد يتطلّب من مُوجّهي الجيل -أولاً- إدراك الواقع بصورة جيدة وفهم أبعاده، قبل صعود منابر التوجيه والإرشاد التي لن تكون منابر حقيقةً بالتأثير والتغيير والإصلاح قبل أن يُدرك القائمون عليها حقائق الواقع الذي يريدون معالجة مشكلاته، وهذا فيه نقصٌ كبير في الواقع، ولذلك يتشكل الشعور الذي ذكرتُه، وتزداد الفجوة.

ومما يزيد الأمر استحكاماً: **شيوع النظرة الاستحقاقية** لدى كثير من أبناء الجيل الصاعد، وهي نظرة تجعل الشاب يؤمن بأن له حقوقًا مفتوحة دون واجبات مقابلة، وأن تلك الحقوق لا تأتي بمقدار القيام بالواجب، وإنما تأتي بمجرد الوجود، وهذه النظرة من أخطر المهددات للجيل، وهي من أكبر الأسباب -كذلك- لإيصال كثير من فتيات الجيل إلى النسوية.

وسيأتي الحديث عن مقترحات تفصيلية للقائمين على توجيه الجيل في قسم الحلول بإذن الله تعالى.

آثار المشكلة ومآلاتها

إن الفهم المجرد للمشكلات وأسبابها لا يعطي القدر التامّ لإحسان التعامل معها، بل لا بد من توقع آثارها الحالية ومآلاتها المستقبلية؛ فإن الـمُصلح الواعي ينظر إلى نهايات المشكلات لا إلى بداياتها فقط، ثم يقرر الوسيلة الأفضل في العلاج، فقد تكون الوسيلة سريعة وعاجلة وآنيّة، وقد يتأنى في معالجة المشكلة ويبني الأسوار التي تحيط بها ثم يقطع عليها الطريق في المستقبل، وكل ذلك بحسب ما يحقق المصالح الشرعية ويدفع المفاسد.

كما أنّ من ثمرات النظر إلى مآلات المشكلات وآثارها الحالية والمستقبلية أن ذلك يبين مدى خطورة المشكلة ومن ثم أولويتها في العلاج، وذلك أنّ المصلح يعتني بتقديم الأولى فالأولى من المشكلات للعلاج، خاصةً في هذا الزمن الذي كثرت فيه صور الفساد والانحراف والمشكلات، فلا يستطيع المصلح أن يعالج كل الأبواب، بل يركز على أبواب محددة، ومن معايير اختيار هذه الأبواب والثغور: مقدار خطورة المشكلة، وتُعرف الخطورة بمعايير منها: معرفة مآلاتها وآثارها، فما كان من المشكلات ممتد الآثار قبيح المآل عميق التأثير، فله أولوية في الاهتمام، وما كان بعكس ذلك عابراً سريعاً سطحياً فأمره أهون.

وإذا سلطنا الضوء على مشكلة التفاهة وأردنا النظر في آثارها ومآلاتها، فيمكن لنا أن نقف على عدد من الآثار والمآلات، وذلك كما يلي:

1 - **تعزيز حالة الوهن والغثائية في الأمة الإسلامية**، وذلك أنّ النبي ﷺ قد أخبر أن أمته ستصاب بالوهن، وأن الأمم ستتداعى عليها، وأن الأمة وإن كان عدد أبنائها كبيرًا إلا أنهم سيكونون غثاءً كغثاء السيل، وهذا كله ينطبق على حالة التفاهة المنتشرة، ويُخشى على الأمة إن لم تتدارك شبابها وأجيالها الصاعدة أن يزداد تكالب الأعداء عليها، وأن يطولا أمد بلائها.

2 - يؤدي التعود على مستوى معين من التفاهة وعدم الجدية إلى **استثقال التكاليف الشرعية** التي تتطلب مجاهدةً للنفس ومخالفةً للهوى كما ثبت عن النَّبي صلى الله عليه وسلَّم أنه قال: (حُفّت الجنة بالمكاره، وحفّت النار بالشهوات) أخرجه البخاري ومسلم[1].

قال الإمام النووي رحمه الله: (فأما المكاره فيدخل فيها الاجتهاد في العبادات، والمواظبة عليها، والصبر على مشاقها، وكظم الغيظ، والعفو والحلم، والصدقة، والإحسان إلى المسيء، والصبر عن الشهوات، ونحو ذلك)[2].

(1) البخاري (6478) من حديث أبي هريرة، ومسلم (2822) من حديث أنس واللفظ له.
(2) المنهاج شرح صحيح مسلم، الإمام النووي (379/8) طبعة: الرسالة ناشرون.

ومن المؤكد أنّ تعوّد النفس على نمط من الترفيه الدائم، لا يتواءم مع المستوى العملي للشريعة القائمة على معنى الابتلاء، والصبر على مخالفة الهوى، وتطويع النفس للمرادات العظيمة؛ فالدين الإسلامي دين جِدّ، يأمرك بالاستيقاظ من نومك وأنت في ذروة حلاوته لتصلي الفجر، ويأمرك بغض البصر وكف النفس عن الاسترسال مع أهوائها، ويأمرك بالإمساك عن الطعام والشراب بالصيام، وبالكف عن الظلم، ويأمرك بالزكاة والصدقة وإخراج المال على حبّه، ويأمرك بالجهاد في سبيل الله ونصرة المستضعفين، إلى غير ذلك من التكاليف الشرعية التي لا تستقيم مع النفوس الهشة التافهة.

فالانغماس في عالم التفاهة يصنع حالة من مزاحمة «الهيمنة الإيمانية» التي يريدها الإسلام على النفوس، فإنّ هذا الدين مبني على أن الإنسان لم يوجد إلا لتحقيق العبودية لله عبر التكليف والابتلاء (هو الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً)، كما أن هذا الدين قائم على مركزية الآخرة، بينما تصنع ظاهرة التفاهة حالة من الهيمنة المضادة.

3 – من مآلات ظاهرة التفاهة: **التأثر بالشبهات المتعلقة بالإسلام وثوابته، ومزيد انتشار للموجة التشكيكية**. وذلك من جهتين:

الأولى: ما تتضمنه هذه المصادر التافهة من مضامين تروج

للإلحاد أو الوثنية أو أديان أخرى غير الإسلام، وكذلك ما تتضمنه من ترويج للشذوذ وقبوله ودعمه، سواءً في الألعاب الإلكترونية، أو في حسابات بعض المشاهير، أو غير ذلك.

والثانية: أن من شأن التفاهة أن تجعل النفوس خاوية هشة، فإذا تماسّ الإنسان التافه مع بعض الشبهات المنتشرة في مختلف المساحات فإنه يتأثر بها بسهولة لأنه ضعيف المناعة من الجهة الإيمانية والفكرية. وعموماً لا تتمدد الموجات التشكيكية في فضاء أفضل من فضاء التفاهة الذي من شأنه إسقاط الحواجز والسدود.

4 - تؤدي ظاهرة التفاهة إلى صناعة حالة يمكن تسميتها بـــ «**الدلال المعرفي**» -كما تقدم-: وهي حالة يتعود الذهن فيها على نمط معين من المعلومات المعلّبة السريعة الجاذبة، حتى يصبح هذا النمط معياراً لا يقبل صاحبه بمعرفة لا تتوفر فيها السرعة والجاذبية، وهذا خطر كبير على العلوم والمعارف التي تتعارض مع هذا النمط، كما قد يؤدي الاعتياد على مستوى معين من المتعة والترفيه المرتبط بمصادر التلقي الحديثة التي تعرض التفاهة، إلى النفرة من المصادر التي لا تكون مصحوبة بالمتعة والإثارة، ويظهر ذلك في طبيعة التعامل مع الكتب والمراجع العلمية.

5 - **إضعاف عقيدة الرضا بالقدر، وتعزيز السخط**، وترسيخ التطلع نحو الترف عبر الضخ المتواصل لجديد الماركات والمقتنيات ووسائل الترفيه الباذخة، والسفر والرحلات باهظة الثمن، وذلك لأن حالة كثير من رموز التفاهة قائمة على مبدأ الاستكثار والاستعراض والترف والتبذير، مما يجعل كثيرًا من المتابعين الذين لا يمتلكون مثل هذه المقتنيات في حالة من السخط والتطلع الدائم، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: (انْظُرُوا إِلَى مَنْ هو أَسفَل مِنْكُمْ وَلا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوقَكُم؛ فهُوَ أَجْدَرُ أَن لا تَزْدَرُوا نعمةَ اللَّه عَلَيْكُمْ)[1]

6 - **تدني المستوى الأخلاقي**، واكتساب نمط الهزل في التعامل والعلاقات، وانتشار ثقافة الاستهزاء والتعليقات التي تُصنف في الشريعة ضمن دائرة (الغيبة والسخرية والتنابز بالألقاب)، وهي ثقافة تمتلئ بها ظاهرة التفاهة.

7 - **إضعاف الروابط الاجتماعية والأسرية**، وذلك أنَّ مقدار الجذب والإشغال والهيمنة في حالة التفاهة تُعزِّز الفَرْدانية، وتزيد من انكفاء الشاب على ذاته -كما هو مشاهد في الواقع-، وتقلل من قيمة ارتباطات الإنسان بالبيئة التي لا يرى فيها نفعاً دنيوياً، مما يؤدي إلى إضعاف الترابط الأسري والاجتماعي، وهذا أثر قد

(1) أخرجه البخاري (6490)، ومسلم (2963) واللفظ له.

تحقق في الواقع وبات محلّ مشاهدة من كثير من الناس، وهو مرشح للارتفاع والزيادة.

8 - **ذوبان المبادئ وترسيخ النفعية**، وذلك أنّ الرموز التافهة التي تسعى في الاستكثار الدائم من المتابعين والمعجبين مع التخلي عن كثير من المبادئ، تنقل هذا المعنى إلى الجمهور الذي يرى كيف كانت التفاهة سبباً سهلاً في الوصول إلى الشهرة والجاه والأموال الطائلة، ولذلك نشاهد في الواقع تناقل حُمّى الشهرة، وتوجه تفكير كثير من شباب الجيل إلى الحرص على صناعة المنبر الشخصي.

9 - **نشوء حالة عامة من الضعف المعرفي**، وذلك أنه إذا كانت ظاهرة التفاهة تصنع قوالب معيّنة للمعرفة تمتاز بالسرعة والترفيه والجاذبية، وكان من آثار ذلك على الفرد: النفور من المعلومات التي لا تتوفر فيها هذه الصفات؛ فإنَّ من المتوقع أن يكون هذا الضعف سمة عامة للمرحلة القادمة؛ لأن هذه الإشكالية لا تنحصر في أفراد قليلة من الجيل بل هي من الأمور العامة المنتشرة. وهذا مآل خطر يتطلب انتباهاً مبكراً ورسم حلول فاعلة له.

10 - **صناعة جيل قادم من الآباء التافهين**، الذين نشؤوا وتربوا في حقول التفاهة، وانعكس ذلك على معاييرهم وأفكارهم وطبيعة حياتهم، مما سيؤثر كثيرًا على طبيعة تحملهم لمسؤولية التربية،

ومدى صبرهم على أعبائها، وهذا الأثر قد تحقق شيء منه في الواقع، وهو صائر إلى الزيادة والتنامي -والله أعلم-.

11 - **ازدياد مستوى الهشاشة النفسية في أفراد الجيل الصاعد،** وذلك لما تقتضيه طبيعة حالة التفاهة التي تم وصفها وبيان معالمها، وهذا من أخطر الآثار التي ظهرت وبدت ملامحها على كثيرٍ من أبناء الجيل الناشئ والصاعد، وهذه الهشاشة تزيد من ترسيخ حالة الضعف العام في زمن أحوج ما تكون فيه الأمة إلى رجالها وهمم أبنائها وبناتها.

12 - **اختلال المعايير، واختلال مقاييس التقييم والتقديم والتأخير،** وذلك لما تبنيه منابر التفاهة في نفوس متابعيها من تأسيس معياري شمولي مخالف لما ينبغي أن يكون عليه المسلم في معاييره المستمدة من مرجعية الوحي، وقد ذكرتُ في كتاب (المنهاج من ميراث النبوة) باباً كاملاً في قضية المعايير، وهو: (**بابُ ضَبطِ الأَفْهَام عَلى مِعْيَارِ الوَحْي، وَتَصْحِيحِ النبيِّ ﷺ لمَقَاييسِ النَّظَرِ، وأَنَّ مِنْ أَسْبابِ الضَّلَالِ: رَدُّ الحَقِّ بمعاييرِ نظرٍ خاطئةٍ**) وبيّنتُ في شرحه أهمية المعايير، وعناية النبي ﷺ بتصحيحها عند أصحابه، وهذا من أهم ما ينبغي أن يعتني به المصلحون في خطابهم، وأن يتنبهوا له في تحليل مشكلات واقعهم.

والمقصود أنّ من أخطر آثار مشكلة التفاهة بناء المعايير الخاطئة.

القسم الثاني

كيف نتعامل مع مشكلة التفاهة ونعالجها؟

كيف نتعامل مع مشكلة التفاهة ونعالجها؟

هذا العنوان هو النتيجة العملية التي نود الخروج بها من هذا الكتاب، بعد أن مررنا على معالم الظاهرة وأسبابها الداخلية والخارجية، وسأتناول الحديث عن علاج المشكلة عبر عدة نقاط:

أولاً: أهمية التفكير في الوقاية والحلول الاستراتيجية وعدم الاكتفاء بالمعالجات السريعة:

تتوجه جهود كثير من الدعاة والمربين والمصلحين في مواجهة المشكلات الحادثة إلى العلاج المباشر، دون تنبّه لأهمية الوقاية وصناعة البدائل والحلول المستقبلية، حيث يتوجه القليل منهم فقط إلى الوقاية، والأقل إلى صناعة البدائل، ثم لا نجد من هذه القلة من يبدع في مجاله الإبداع الحقيقي الفاعل إلا الأفراد النوادر، وهذا يؤدي إلى تنامي المشكلة في المستقبل، وذلك أنّ الجهود الدعوية في المعالجة مهما بلغت من القوة فإنها تواجه -في الغالب- مصادر أقوى منها، وتعمل على شرائح أوسع من قدرتها المباشرة على تدارك المشكلة، وفي الغالب لا تنتهي هذه المشكلات وتظل مستمرة ما لم يُتعامل معها بوعي وحكمة ونظر مستقبلي.

ومن الأمثلة على ذلك: الموجة الإلحادية التشكيكية التي انتشرت ما بين عام (1433 - 1439) الموافق (2012-2018) تقريباً، وقد

كانت موجة شديدة عاتية بالغة الخطورة، وكان لها رموز كبار في العالم الغربي والعربي، وتمثّلت في مؤسسات وكتب ومحاضرات وندوات وحملات في شبكات التواصل، واستهدفت أصول التدين والإيمان، وكانت مصحوبة بموجة تشكيكية داخلية حملها بعض المنتسبين إلى الإسلام ووجهوها نحو الثوابت الإسلامية الداخلية وأهمها حجية السنة النبوية، واستهدفوا بها التراث الإسلامي وعلومه كذلك.

وأدى هذا كلّه إلى اختلال إيمان كثير من الشباب، وألحد عدد غير قليل منهم، وأنشأوا تكتّلات ورابطات، وصار لهم صوت عالٍ في شبكات التواصل، وكانت ذروة ذلك مع الدفعة الأولى لبرنامج صناعة المحاور عام (1437-2016)، وكانوا حينها يوصلون الوسوم الإلحادية -الهاشتاقات- إلى (الترند)، ويملؤون فضاء الشبكة بالكفر والإلحاد والاستهزاء بالإسلام، وحصلت مدافعة واسعة ضدهم في فضاء تويتر قادها شباب من طلاب العلم.

وكان السؤال الصعب في تلك المرحلة هو: كيف يمكن مواجهة كل هذا المدّ الإلحادي والتشكيكي؟

وانطلقت بعض الجهود الطيبة -المحدودة- في هذه المواجهة عبر المعالجة المباشرة بالرد على الشبهات، وكنتُ ممن شارك في ذلك مدة طويلة، وخصّصتُ رقمًا لاستقبال أسئلة الشبهات مدة سنة

كاملة، وكانت الجهود بفضل الله طيبة ونافعة، غير أنها كانت محدودة الأثر جداً أمام تلك الموجة الكبيرة.

حتى أكرمنا الله تعالى بفكرة برنامج (صناعة المحاور) وهو برنامج تعليمي إلكتروني، يُعنى بتعزيز اليقين وتثبيت الثوابت، وبتعليم طرق نقد الشبهات، ومعرفة أصولها ومنابعها، وكيفيه التعامل معها، ومدته (10 أشهر)، ثم عملنا البرنامج التخصصي للمتخرجين من البرنامج العام، وعملنا موقعًا إلكترونيًا حوارياً يعمل فيه نخبة الخريجين من البرنامج التعليمي، وجرَتْ فيه آلاف الحوارات، واهتدى بسببه الكثير ولله الحمد والمنة سبحانه، وتجاوز عدد المسجلين في البرنامج التعليمي بدفعاته الثمان: مائة وثلاثين ألف مشترك من مختلف بلاد العالم، وبلغ عدد الخريجين: (22317) متخرجاً بفضل الله تعالى، كثيرٌ منهم من حملة شهادة الدكتوراة والماجستير، ومن الدعاة والعاملين، والأكثر من الشباب الجامعيين ذكوراً وإناثاً.

وانتشرت فكرة (تعزيز اليقين) وأُلِّفَت كُتُب خاصة للبرنامج، وأُخرى موازية ومواكبة لحالة الاهتمام التي تنامَتْ في تلك المرحلة لمواجهة المدّ الإلحادي والتشكيكي، بالإضافة إلى الجهود التي قام عليها بعض الأفاضل في مراكز الدراسات ودور النشر المعتنية بهذا الملف، أدّى كل ذلك -بفضل من الله تعالى وبركة منه- إلى

إحداث حالة مناعة وممانعة واسعة، جعلت تلك الموجة تنكسر وتتشتت، وذهبت حدتها وانطفأت شعلتها، وإن كان قد بقي لها آثار وأضرار، ويحاول البعض إعادتها ودعمها ونفخ الروح فيها من جديد، إلا أنّ تجربة مقاومتها كانت تجربة عظيمة ونافعة ومثمرة بفضل الله تعالى.

والشاهد من هذا كله، أنّ معالجة المشكلات الكبيرة لا يصلح فيها التركيز على تخفيف الأضرار في الزمن الحاضر فقط، وإنما ينبغي التفكير في المستقبل كذلك، وإعداد الكوادر التي تواجه المشكلة، والجمع بين العلاج والوقاية وصناعة البدائل والكوادر، فهذا الذي يبقى وينفع، وهو الموافق لهدي الأنبياء في الإصلاح.

ثانياً: محاور التعامل مع مشكلة التفاهة ومعالجتها:

بناءً على ما سبق ذكره من أهمية الحلول الاستراتيجية والوقاية وعدم الاكتفاء بالعلاج المباشر؛ فإنّ التعامل مع مشكلة التفاهة ينبغي أن يكون على محاور متعددة، وهي:

- **محور العلاج**: وذلك عبر التماسّ المباشر مع المتأثرين بالتفاهة بالوسائل الجاذبة، وإقامة الحملات الإعلامية المكثفة حول المشكلة وعواقبها، وكيفية التخلص منها، والتركيز على المدارس بالنشاطات والمعارض، وعموم التحذير من المشكلة وبيان أضرارها بمختلف

الوسائل (المرئية، والمكتوبة، وعبر شبكات التواصل)، وتسليط الضوء على النماذج التي تجاوزت المشكلة، إلى غير ذلك من الوسائل المباشرة.

وها هنا تنبيه متعلق بمحور العلاج، وهو أنّ من أعظم التحديات التي تواجه من يعالج ظاهرة التفاهة: إشكالية العجز عن منافسة مصادر التفاهة، حيث تحظى تلك المصادر بقدرٍ عالٍ من الجذب والمتعة والشمولية المؤدية إلى حالة من الهيمنة والإدمان، وهذه الهيمنة تجعل من الصعب على المربين والموجهين علاج مشكلات الجيل، فيدفعهم هذا أحياناً إلى اتخاذ وسائل حادة للتغيير، أو بعكس ذلك قد يدفعهم إلى التخفف من المضامين النافعة والصالحة والتركيز على الترفيه الخالي من المعاصي؛ ظنّاً أنه البديل الأنسب عن موجة التفاهة، وهذا وهم، والصواب هو أهمية التركيز على المضامين القوية المُحْيية مع استعمال أفضل الوسائل الجاذبة للشباب واستعمال اللغة التي يفهمونها.

- **محور الوقاية**: ويدخل فيه ما سبق ذكره من التحذير من المشكلة وبيان أضرارها، سواء للمتضررين منها أو لمن هو قابل للتأثر بها.

ويضاف عليه: إيجاد البيئات التربوية المناسبة التي تحتضن الشباب، وتصرف مواهبهم إلى ما يفيدهم، وترفع من هممهم، فهذا من أعظم سبل الوقاية.

ومما يعين على الوقاية كذلك: تثقيف المعلمين والآباء، وإرشادهم إلى كيفية التعامل مع هذه المشكلة في طلابهم وأبنائهم.

- **محور الحلول الاستراتيجية**: وأهم ما يدخل في ذلك: صناعة النُّخب الواعية المصلحة من الجيل الصاعد، التي تكون مثلاً وقدوة للجيل، والتي يمكنها مخاطبة أقرانها والتأثير عليهم، وهذه لا تكون إلا عبر التربية عالية المستوى، والبرامج الـمُحكَمة، والتربية العملية، وهي وإن كانت مُكلفة على كل المستويات إلا أن نتائجها مبهرة، وممتدة الأثر.

ومما يدخل في الحلول الاستراتيجية كذلك: تكثيف الخطاب الإحيائي الاستنهاضي للهمم والعزائم، والذي من شأنه أن يحمل بداخله علاجاً لكثير من المشكلات التفصيلية الداخلية ولو لم يتم علاجها بشكل مباشر.

ومن مميزات الحلول الاستراتيجية أنها تهدف إلى تمليك الأجيال القادمة أسباب قوتها الفكرية وحصانتها الذاتية أمام ما قد يستجد من المصادر المولدة للإشكالات على مختلف الأصعدة، وأن آثارها لن تظلَّ محصورة في معالجة مشكلة التفاهة بل ستعالج معها كثيراً من مشكلات الجيل الأخرى.

ثالثاً: وسائل عملية لمعالجة مشكلة التفاهة:

حين نتحدث عن الحلول لمشكلة كبيرة واسعة الانتشار كالتفاهة، فإن من أهم ما ينبغي أن نُدركه أنها لا يمكن أن تعالج بفئة واحدة من الفئات الـمُصلحة، بل لا بد من تضافر الجهود وتكاثفها، فيشترك في علاجها: الأُسَر والعوائل، والدعاة والمربون، والمعلمون، والمثقفون والكُتّاب، ومشاهير شبكات التواصل.

وسأذكر قائمة من الحلول العملية المقترحة لبعض هذه الفئات المذكورة، وهي لا تختص بهم وحدهم، فيمكن استفادة كل الفئات من هذه المقترحات:

أولاً: الأسرة:

التفاعل الصحيح مع مشكلة التفاهة يبدأ من الأسرة، فهي المحل الذي تنشأ فيه الأجيال الصاعدة التي هي الأكثر تأثراً من ظاهرة التفاهة، ويزداد دور الأسرة كلما قل وجود المصلحين أو ضعفت أدوارهم في الخارج كما هو الحال اليوم، فإذا ضعف دور الأسرة كذلك، أو كانت سبباً في نشر التفاهة وترسيخها في أبنائها؛ فهذا يجعل علاج المشكلة عسيراً بعيداً؛ ولذلك فإن على الآباء والأمهات إدراك دور الأسرة بصورة واعية، ومن ثم القيام بما يمكنهم تجاه وقاية أبنائهم.

وهذه بعض المقترحات العملية الموجهة للأسرة:

1 - حث الأبناء على التسجيل في البرامج التعليمية التربوية الموجهة للجيل، مثل برنامج أكاديمية الجيل الصاعد الإلكترونية[1]، والمراكز الصيفية التربوية، وغيرها، وميزة هذا المقترح أنه مريح للآباء المشغولين، أو من لا يستطيعون تقديم الوقاية لأبنائهم لأي ظرف من الظروف، وهـذا لا يلغي دور الأسـرة بطبيعة الحال، ولكنه يخفف قدراً من الأعباء.

(1) التعريف: هي أكاديمية تربوية إلكترونية تسعى لإيجاد البديل عن عالم التفاهة المحيط بالجيل الصاعد، من خلال غرس القيم وتعزيز الهوية الإسلامية، بالأساليب المتوائمة مع الطبيعة العمرية لكل فئة، وذلك عبر برامج معرفية منضبطة، وبيئة تفاعلية تربوية.
الرؤية: جيل معتزّ بهويّته، متسام عن الدون، ينطلق من ثوابته لصناعة مستقبله ومستقبل أمته.
الفئة المستهدفة: الجيل الصاعدً من الجنسين، من عمر 12 إلى 22 سنة.
مسار بذور (تعليمي عام) (11-16 سنة).
مسار جذور (تربوي مخصص) (11-16 سنة).
مسار غراس (تعليمي عام) (17-22 سنة).
مسار إشراق (تربوي مخصص) (17- 22 سنة).
مسار إثمار (تربوي مخصص) (17- 22 سنة).
مدة الدراسة: تختلف بحسب المسار، فبعض المسارات مدتها سنتان، وبعضها مدتها أربع سنوات.
أهداف الأكاديمية:
انتشال شباب وشابات الجيل الصاعد من دائرة التفاهة واللامبالاة المحيطة بهم ونقلهم إلى دائرة الهمة والاشتغال بما ينفعهم.
إحياء الروح الإيمانية والارتقاء بالجانب التزكوي.
بناء المعرفة الشرعية التي لا يسع الشاب جهلها في العقيدة والسلوك.
بناء النفسية السوية القادرة على التعامل مع المشكلات ومواجهة التحديات.
الإسهام في بناء الكفاءة المهارية الأساسية.
تعزيز الهوية الإسلامية وصناعة الرؤية المستقبلية الطموحة.
منجزات البرنامج:
تخريج الدفعة الأولى من الأكاديمية:
عدد الخريجين من مسار غراس الدفعة الأولى: 1425 طالبًا.
عدد الخريجين من مسار جذور الدفعة الأولى: 291 طالبًا.
عدد الخريجين من مسار إشراق الدفعة الأولى: 312 طالبًا.

ومن المهم بعد هذه الخطوة أن تكون هناك متابعة للأبناء وسيرهم، ومشاركة لهم فيما يتعلمون، وأن يُعتنى بتشجيعهم وتحفيزهم وإكرامهم إذا اجتهدوا وأكملوا مسيرهم في البرامج.

2 - القيام ببرامج جماعية داخل البيت، تتمثل في قراءة السيرة النبوية، وقصص القدوات الصالحة، ونحو ذلك، وهذا المقترح مُجرب ومفيدٌ كثيراً، وإن كان يعجز عنه البعض فإن كثيرًا من الآباء والأمهات يمكنهم ذلك، فعليهم كسر حاجز البدايات ثم يجدون البركة إن شاء الله، ومن الكتب المرشحة للقراءة والتعليق والتدارس: كتاب رياض الصالحين، وكتاب الرحيق المختوم، وكتاب صور من حياة الصحابة، وحلقات: أبجديات الثقافة الإسلامية للجيل الصاعد.

3 - مشاركة الآباء والأمهات بأنفسهم في البرامج العلمية الإلكترونية الموجهة لفئاتهم العمرية، مثل برنامج البناء المنهجي، والبناء الفكري، ونحوهما، لرفع كفاءتهم العلمية، وللاطلاع على الكتب والمواد التي تعزز المناعة الفكرية، وتنمي المعرفة المتصلة بالشريعة والواقع، وهذا ينعكس على قدرتهم في التعامل مع الأبناء بالزيادة والنماء.

4 - غرس شعور الحب والتعظيم لله ودينه وكتابه وشعائره وحُرُماته، وغرس شعور المحبة والاقتداء تجاه النبي ﷺ، والتعظيم لسنته،

وغرس مكانتها وعظمتها، وتثبيت قيمة الاعتزاز بالدين، وهذا له أثر كبير في رفع مستوى المناعة تجاه الأفكار التي تتضمنها موجة التفاهة، وتجعل للأبناء خطوطاً حمراء عظيمة في نفوسهم من الصعب تجاوزها.

5 - إيجاد مساحات تواصل حضورية ثابتة للعائلة -ولو مجلساً أسبوعياً- يحضر فيها الوالدان وجميع الأبناء والبنات -حتى المتزوجين منهم-، ويكون هذا المجلس محترماً من الجميع، والهدف منه: تعزيز المحبة والتواصل والعلاقة بين أفراد الأسرة، والحديث عما يهمّ كل فرد منهم، ويُفضل منع استعمال شبكات التواصل أثناء الجلسة، وعدم نقلها إلى مساحة التصوير والنشر والاستعراض، وإنما تكون جلسة خالصة للعائلة، ويمكن أن يُضاف إلى الجلسة برنامج للقراءة أو النقاش المنظّم، ونحو ذلك، ومثل هذه المجالس لها أثر كبير في الوقاية من أضرار عالم التفاهة الموصل إلى تهميش العلاقات الأسرية ومكانتها.

6 - تعزيز الهوية الإسلامية لدى الأبناء، وتعزيز المناعة الفكرية تجاه ما تتضمنه عوالم التفاهة من أفكار ومضامين. وهذا الموضع فيه صعوبة على أكثر الآباء والأمهات، ولذلك يمكنهم أن يقوموا بدور الدلالة والإرشاد والإحالة على المواد النافعة في ذلك

ثم متابعتهم وتشجيعهم، ومن المواد المفيدة في ذلك: سلسلة (تعزيز الهوية الإسلامية للجيل الصاعد)، وسلسلة (التفكير الناقد للجيل الصاعد).

7 - الحرص على التشجيع والتحفيز والدعم النفسي للأبناء، فإن من أبرز ما يجذب الأبناء إلى عوالم التفاهة والتصدر فيها هو ما يجدونه من الإعجاب والاهتمام والتقدير والمشاركة العاطفية، فإذا حرصت الأسرة على إشباع هذا الجانب فيهم شكَّلَ هذا قدراً من الوقاية، بل قدراً صالحاً من العلاج كذلك، لأن الآثار النفسية الناتجة عن ظاهرة التفاهة كبيرة.

ثانياً: المُربّون والمربيات:

من أهم الدوائر التي يقع عليها علاج مشكلة التفاهة وتحقيق الوقاية منها: فئة المربين، والمقصود بهم: المصلحون الذين اتخذوا من التربية للأجيال ثغراً إصلاحياً لهم، وهؤلاء أجدر من يمكنهم العمل على المحاور الثلاثة المذكورة في البداية: (العلاج، والوقاية، والحلول المستقبلية)، وذلك عبْر **المحاضن التربوية** التي تُقام فيها البرامج التربوية التفاعلية مع الجيل الصاعد، وتتضمن التعليم الشرعي وتحفيظ القرآن الكريم، والرحلات والنشاطات، والبناء التزكوي والسلوكي، والمعايشة التربوية، والتقويم والإصلاح للأفراد بعد ملاحظة الميزات والإشكالات الشخصية والنفسية.

وبرأيي أن الأمة في حاجة ماسّة إلى تنمية وتكثير هذه المحاضن التي هي من أعظم المشاريع الإصلاحية المحتاج إليها، وأنها إن كثرت في الأمة وانتشرت وقام عليها الأكفاء؛ فإنّ الثمرات التي ستتحقق من خلالها لا تقتصر على معالجة مشكلة التفاهة فحسب، بل ستشمل التحديات الفكرية والسلوكية عموماً، بل إنها من أهم الميادين لما هو أعظم من ذلك من تحقيق واجب الوقت: صناعة المصلحين، وتنشئة حملة الدين.

غير أن ذلك كله لا يتحقق بمجرد إيجاد المحاضن التربوية، وإنما يتحقق بإذن الله تعالى إذا كانت الأهداف التي تبنى عليها المحاضن أهدافاً كبيرة عالية، وإذا بُني المربّون وهُيئوا لهذا الميدان، ولذلك فإن المفتاح الأول لنجاح المحاضن هو: صناعة المربين، وإيجاد المناهج المناسبة، وصيغة العلاقة المثمرة.

وقد ذكرتُ سمات المحضن التربوي الناجح، وكيفية بنائه، واحتياجات المربي وصفاته وما ينبغي أن يكون عليه، وغير ذلك من الموضوعات التربوية المتعلقة بالمحاضن التربوية في سلسلة (صناعة المربي) على يوتيوب، وسأُصدر كتاباً في هذا المجال بإذن الله تعالى وعونه وتوفيقه، فمن كان مهتماً بذلك فليراجع السلسلة وغيرها من المواد في نفس الموضوع، ومن المواد المفيدة في ذلك: كتاب (التربية من جديد) للشيخ فايز الزهراني.

وأما علاقة المحاضن التربوية بمشكلة التفاهة؛ فهي علاقة معالجة شمولية لا تقتصر على وسائل محدودة، لأن كل مسيرة المحضن وبرامجه تُعدُّ بديلاً صالحًا عن أجواء التفاهة وعوالمها، وقد رأيتُ ذلك حاضراً في نماذج كثيرة من الجيل الصاعد في المحضن التربوي الذي أقوم عليه، والحمد لله.

ومن الجدير بالذكر هنا أن المحاضن التربوية لا تستهدف الشرائح الواسعة من الشباب، إذ إن عنايتها متوجهة إلى المهتمين والنّخب وأبناء العوائل الحريصة على إدخال أبنائها في مثل هذه السياقات، غير أن البناء في هذه المحاضن إذا كان صحيحاً؛ فإن ثمراته ومخرجاته ينبغي أن تكون عامة واسعة، وأن يكون من أبناء هذه المحاضن خطباء الجمع، والمعلمون، والدعاة والمصلحون في مختلف المساحات، فالمحاضن نقطة انطلاق لفضاءات واسعة، ولذلك فإن من أهم ما ينبغي أن يُنشَّأ عليه المتربون في المحاضن: أن يكونوا للأمة لا للمحضن، ولعامة الناس لا لخاصتهم، وألا يتميزوا عن الأمة بتصنيف يعزلهم.

ثالثاً: المعلّمون والمعلمات:

بيئة المدارس هي البيئة الأوسع للفئة المستهدفة بالتفاهة، وهي مع ذلك من أقل البيئات التي تنتشر فيها الجهود الإصلاحية، وتتحقق فيها آثار التربية من الجهة الإيمانية والسلوكية، وعادةً ما يكون فيها

صوت التافهين هو الأعلى، وفي سياق معالجة مشكلة التفاهة لا بد أن تكون هذه البيئة محلاً وميداناً للوقاية والعلاج.

وأكثر فئة يمكنها التأثير في المدارس هي فئة المعلمين والمعلمات، ولذلك ينبغي عليهم أولاً ألا يحتقروا دورهم، وأن يتقوا الله في الأمانة التي حُمّلوها، وأن يدركوا أنهم على منبر مؤثر إن هم أحسنوا استثماره.

وهـذه بعض المقترحات لهم للتعامل مع مشكلة التفاهة عند الطلاب:

1 - إعداد قوائم مواد صالحة للجيل من الكتب والمقاطع المرئية والبرامج العلمية، ودوام الإحالة عليها والحث على متابعتها والإرشاد إليها، ويستحسن عمل مسابقات على بعضها.

2 - فتح مساحة حوار (دردشة) مع الطلاب قبل الحصة أو بعدها، ويكون محورها الحديث عن مشكلاتهم والتفاعل معها، ومن جملتها مشكلة التفاهة، وينبغي أن يكون هذا الحديث أخوياً لطيفاً يشعرون فيه بالقرب، ويكون بلغة مفهومة لهم.

3 - تحضير مجموعة من القصص المتعلقة بعلو الهمة، والصبر، وتطلّب المعالي، وقصّها على الطلاب بصورة دورية، والقصة أسلوب مؤثر ومفيد جدًّا لطلاب المدارس.

4 - إحداث حالة من الأمان بين المعلم والطالب تفضي إلى الصدق والصراحة في الحديث وعدم التخوف من عرض المشكلات.

5 - الاستعداد لأسئلة الطلاب التي تهمهم من الناحية الفكرية والأخلاقية والنفسية، وفي حال عدم القدرة على الإجابة عن هذه الأسئلة؛ فيمكن الاستعداد بمعرفة أهم المراجع المتعلقة بهذه الأبواب ومن ثم الإحالة عليها، أو معرفة مفاتيح التعامل مع هذه الأسئلة، وقد جمعت كثيراً من هذه الموضوعات التي تشغل الشباب من الناحية الفكرية، مع مفاتيح التعامل معها وأهم المراجع في كل باب في كتاب (سابغات).

6 - التحذير المباشر من آثار مشكلة التفاهة ومآلاتها، وبيان سبل التخلص منها.

رابعاً: دعاة الشباب على شبكات التواصل:

إن من أهم الشخصيات القابلة للتأثير على مجتمعات الشباب المتأثرين بالتفاهة هم طبقة الدعاة من الشباب، المدركين لطبيعة الخطاب المؤثر في الشرائح الشبابية، والقادرين على إحسان استعمال منابر شبكات التواصل في الدعوة والنقد للمشكلات وعلاجها.

وذلك أن مما يُلاحَظ على الأجيال السابقة أن كثيراً منهم -وإن كانوا من أهل العلم والفضل- إلا أنهم لا يُحسنون خطاب الأجيال الجديدة، ولا يُدركون طبيعة شبكات التواصل وما يناسبها من الأساليب، بينما يُحسن ذلك عامة الدعاة الشباب الذين يفهمون أقرانهم ومن يقاربهم في السنّ، ويدركون طبيعة المؤثرات المحيطة

بهم؛ ولذلك فإن من أولى الناس بمعالجة مشكلة التفاهة، وبيان مخاطرها ومآلاتها الفاسدة، هم الشباب أنفسهم، وفي منابر شبكات التواصل تحديداً.

وهاهنا قد ينشأ سؤال مهم، وهو: **هل يصح استثمار المنابر التي عرفت بالتفاهة والانحطاط للعمل الدعوي؟**

وهذا السؤال لا يتعلق بأصل المشاركة في شبكات التواصل التي تجمع بين الخير والشر، وتجمع مختلف الطبقات والفئات، فهذه ليست محل بحث ولا سؤال، بل تُعد من أهم المنابر الإصلاحية لعلاج المشكلة وبيان أضرارها، غير أن السؤال موجه نحو بعض المواقع والتطبيقات الاجتماعية التي تكاد تكون خالصة في نشر التفاهات والمحرمات، فينشأ السؤال والاستشكال حول المشاركة فيها من الناحية الدعوية والإصلاحية ومعالجة المشكلات.

وتختلف وجهات النظر تجاه هذا السؤال بحسب الجهة التي ينظر الإنسان من خلالها، فباعتبار كون المنبر معروفًا بأنه منبر تفاهة، وأن الداعي إلى الله ينبغي أن تكون دعوته صافية، وأنه يتحرى صفاء القلوب وإقبالها؛ فإن جانب اعتزال هذه المنابر يترجح، خاصةً إذا نظرنا إلى مفسدة إرشاد الناس المجتنبين للتفاهة إلى هذه المنابر بدخول الدعاة إليها، لأن كثيًرا من الناس يتبع وجود الدعاة في كل المنابر، وهذا فيه مفسدة كبيرة.

وإذا نظرنا من جهة أخرى، وهي أهمية دخول الدعاة إلى كل المنابر والميادين، وعدم ترك الساحات التي يتجمع فيها الشباب التافهون والفاسدون لفسادهم وتفاهتهم، بل يجتهدون في مزاحمة الفساد بالصلاح، فإن جانب الدخول إلى هذه المنابر يترجح، وربما يُستَدَل على ذلك بأن النبي ﷺ كان يغشى أسواق الجاهلية للدعوة إلى الله تعالى.

ولا شك أنّ هذه الزوايا من النّظر صحيحة ومعتبرة، وأن المفاسد المذكورة هي بالفعل موجودة في مثل تلك المنابر وفي دخول الدعاة إليها، وبناءً على ذلك كله؛ فإن المتحقق في مثل هذه القضايا هو النظر بالحكمة في الموازنة بين المصالح والمفاسد، وترجيح خير الخيرين ولو ترتب عليه ترك أدناهما، ودرء شر الشرين ولو ترتب عليه ارتكاب أدناهما.

ولذلك فإنّ من الخطأ إطلاق حكم ثابت على هذه المسألة، بل يُنظَر في كل منبر بحسبه، وفي كل ظرف بملابساته، كما أن الحكم قد يختلف بين داعية وآخر بحسب تأثيره وطبيعة خطابه والفئة المستهدفة.

مع ملاحظة أن منابر شبكات التواصل تُحَدّث باستمرار، وقد يخفت بريق منبر على حساب الآخر، وهذا كله له تأثير في النظر والحكم كذلك، والمدار في كل ذلك على تحقيق المصلحة الشرعية

المعتبرة، ودرء المفسدة الشرعية المتحققة، وكلما أحاط الناظر بجوانب المصالح والمفاسد أعانه ذلك على الترجيح، وكلما قصر نظره إلى جانب واحد أو جوانب قليلة صعب عليه الترجيح، وربما جزم بالحكم على غير هدى.

ومن الجوانب التي ينبغي النظر إليها لتُعين في الوصول إلى الحكم، ما يلي:

- هل لدى الداعية منابر كثيرة في مختلف المواقع بحيث يصل صوته إلى مساحات واسعة متنوعة تغني عن دخوله إلى الموقع الـمُشكِل؟
- هل هناك من يكفي الداعية هذا الثغر فيقوم بواجب الدعوة في ذلك المنبر، ويكون واسع التأثير مما يجعل قضية الدخول مجرد زيادة خير؟
- هل هناك من يمكنه نشر المقاطع المفيدة في تلك الشبكة دون الدخول المباشر المؤدي إلى جلب المتابعين غير التافهين إلى هذه الشبكة؟
- هل طبيعة النشر في تلك الشبكة تحتمل المشاركة والتأثير بالموضوعات الصالحة أم أن طبيعتها لا تتوافق مع ذلك ولا تحتمل إلا التفاهة واللهو واللعب؟
- هل لدى الداعية ثغر أهم منه في بقية الشبكات أو في أرض الواقع تتطلب منه تقديم مصلحة العمل الأنفع والأسلم؟

- هل عامة جمهور ذلك الداعية من طلاب العلم غير المتصلين بتلك المنابر فيُخشَى من دخول الداعية دخولهم وراءه إليها وتأثرهم بها؟ أم أن عامة جمهوره من الشباب الذين لهم اتصال مسبق بتلك المنابر؟

إلى غير ذلك من الأسئلة المفيدة في معرفة جوانب المصالح والمفاسد في هذا الباب، ومن المعلوم أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، هذا من حيث الأصل، لكن إن عظمت المصلحة وضعفت المفسدة فقد يترجح جانب جلب المصلحة على جانب درء المفسدة، مع التنبيه إلى أنّ الداعية الواعي الحكيم لا يجعل دعوته رخيصة فيكيّفها بحسب الصيغ التافهة، بل يكون عزيزًا مبيّنًا رفيقًا في كل المنابر وعلى مختلف الساحات، وأن الشأن في الإخلاص، ثم في البيان والرفق والحرص على المدعوِّين لإيصال الرسالة إليهم بأفضل الطرق، وأن عليه أن يستحضر دائمًا: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:272].

والشاهد من هذا كله أن من أهم الشخصيات التي يقع عليها واجب مقاومة التفاهة في شبكات التواصل هم دعاة الشباب، وذلك لما سبق ذكره من الأسباب، ولئن ضاقت بعض المنابر عن أن تكون محلاً للدعوة في شبكات التواصل لغلبة فسادها أو لاستحكام التفاهة فيها؛ فإن المنابر الأخرى على شبكات التواصل واسعة وكثيرة، ويمكن أن يصل من خلالها الصوت بقدر جيد، فالشأن كل الشأن في توجيه

البوصلة، وتحديد الغاية، وعلو الهمة، وفي العمل بجد وحرقة لدين الله سبحانه وتعالى، ولمواجهة المشكلات التي ترسّخ تأخر الأمة وحالة الغثائية فيها.

وينبغي على هؤلاء الدعاة من الشباب في شبكات التواصل ألا ييأسوا من الشخصيات المشهورة من الشباب المشتغلين بالترفيه والألعاب الإلكترونية ونحوها، فإن في بعضهم من الخير ما يمكن استثماره والعمل على تنميته، ولذلك ينبغي أن يكونوا محلّا لاهتمام الدعاة الشباب، وأن يوجهوا لهم ما يمكن من النصيحة والدعوة إلى الخير والحث على أن تكون منابرهم منابر صلاح، خاصةً وأن وراءهم من الشباب والفتيات الأعداد الكبيرة التي يرجى صلاحها بصلاح من يتابعونه من هؤلاء المشاهير.

خامسا: معالم تقوية مناعة الشباب تجاه ظاهرة التفاهة وما تتضمنه من مشكلات أخلاقية وفكرية:

ذكرتُ في النقاط السابقة أدوار الأسرة والمعلمين والمربين في التعامل مع مشكلة التفاهة، وسأذكر هنا ما ينبغي أن يصلوا إليه لتعزيز المناعة في الفئة المستهدفة، تجاه مشكلة التفاهة وعموم التحديات الفكرية والأخلاقية، بمعنى: ما المعالم التي إذا توفرت في شخصية الشباب وتكوينهم فإنها تضمن الوقاية لهم من هذه الموجات السلوكية والفكرية -بإذن الله تعالى-؟

والجواب في هذه المعالم:

1 - العناية برفع المستوى الإيماني في الشباب، والحرص على تربيتهم وتزكيتهم، وتثبيت مركزية الآخرة ودوام استحضارها. وهـذا من أعظم الأسباب المانعة من الانغماس في الغفلة والتفاهة والملهيات، وهو مقصد من أعظم مقاصد بعثة الأنبياء والرسل، ولذلك فإن هذا من أشرف المقامات بالنسبة للدعاة والمصلحين، ووسائل تحقيقه كثيرة متنوعة.

2 - تعزيز الانتماء للأمة الإسلامية لدى الشاب، ورفـع اهتمامه بقضاياها، وإشعاره بآلامها، وتحميله مسؤولية أن يكون له دور تجاهها بما يمكن، فهذا من أعظم ما يسمو به الإنسان عن التفاهات، خاصةً إذا قُدّم له برنامج علمي بنائي يوصله إلى الثمرة.

3 - تكوين الشاب بالبناء العلمي الجامع بين العلوم الشرعية والمتطلبات المعرفية الواقعية، المتعلقة بالفكر والتاريخ الحديث ومشكلات الواقع ونحو ذلك، فإن من ينشغل بمثل هذه البناءات فإنه إنما يكوّن لنفسه لبنات ترفعه وتعليه حتى يتسامى عن التفاهات والملهيات، ويضنّ بوقته، ويدرك قيمة الزمان، ويتصل بأنوار ميراث النبوة، ومن فضل الله تعالى أن البرامج العلمية الإلكترونية قد انتشرت في هذا الزمن وصارت تسدّ كثيراً من الاحتياج للشباب.

4 – تقوية التفكير الناقد، وتعليم الشاب كيف يتنبّه لمواطن الخلل المنتشرة حوله في شبكات التواصل وغيرها، ويمكن في ذلك مراجعة مادة (التفكير الناقد للجيل الصاعد)، كما يمكن تعزيزها بمزيد من الأمثلة والتطبيقات حول مشكلة التفاهة.

5 – بناء السوية النفسية الإيمانية للشاب، والتي تقيه بإذن الله من الإشكالات النفسية المتنامية في الأجيال الصاعدة، وهذا الموضوع مهم جداً، وينبغي أن يكون محل عناية بالغة ممن يخاطب الجيل، والحاجةُ إليه ليست فقط للمتأثرين بالتفاهات، بل لوقاية من يتأثر بها، وقد يسر الله تقديم مادة مهمة في هذا الباب بعنوان: (سويّة المؤمن).

6 – إحياء الهمم والعزائم، والانتهاض بالشباب من داء الكسل والخور والعجز –الذي هو من أكثر الأدواء انتشاراً في الأجيال الصاعدة–.

7 – تحميل الشاب المسلم همّ العمل للدين، وهمّ الإصلاح والدعوة والمشاركة الفاعلة في الأمة والمجتمع والأسرة بالبرّ والخير والنفع، وبمواجهة الباطل وإنكار المنكر، ونحو ذلك من المقامات التي تجعل لديه قضية يعيش لأجلها، ويناضل في سبيلها، فتسمو نفسه وترقى.

8 - تنمية المهارات، وتمليك الشاب أدوات التعامل مع واقعه المعيشي، فهي من أسباب زيادة الثقة والاتزان في هذا العالم المليء بالخوف والقلق تجاه المستقبل والمعيشة، مما قد يصرف كثيرًا من الناس عما ينفعهم في دينهم هلعاً لأمر دنياهم.

9 - بناء المعايير الصحيحة التي تجعلهم قادرين على تقييم الأفكار والمستجدات والـمُدخلات بناء عليها.